فــنونُ السّـِحْرُ

تأليف

أحمد الشـنتناوي

الكتاب: فنونُ السِّحْرُ

الكاتب: أحمد الشـنتناوي

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

الشـــنتناوي ، أحمد

فنونُ السِّحْرُ/ أحمد الشـنتناوي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٠٧ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٥ – ٩٤ – ٦٨٢٣ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٣٣٢٥ / ٢٠٢٠

فنونُ السّحْرُ





الفصل الأول

السحر في الأمم القديمة

السحر قديم غاية القدم ولا يمكن أن يصل الباحث إلى أصوله وبداياته لأنها أقدم من كل أثر خلَّفه الإنسان. ولقد كان السحر موجوداً في كل زمان وفي كل مكان ولا يزال له إلى اليوم أشياعٌ وأنصار منتشرون في كل بقاع العالم على الرغم من غلبة العلوم المادية على كل ما هو روحاني، بحيث أصبح الإنسان لا يؤمن إلا بكل ما هو محسوسٌ وملموس.

على أن السحر قد إختلط منذ أقدم العصور بأعمال الشعوذة وحيل المشعوذين وتخيلات أصحاب العقول السقيمة وجرائم الأفاقين والمحتالين، ودخل إلى ميدان هذا العلم أو الفن إذا أردت الدقة أناس بعيدون كل البعد عن هذا الفن وإستغلوا مبادئه وظواهره لتحقيق أغراض مادية في ومن ثم بدأ الشك يتسرب إلى عقول الناس في حقيقة هذا الفن فوصفه البعض بأنه فن إحداث معلولات دون أن تكون لها على ظاهرة، وذهب آخرون إلى أن السحر مجرد باطل من الأباطيل.

على أنه لا مرية في وجود السحر فقد ورد ذكره في التوراة والإنجيل والقرآن وجاء على ألسنة الرسل والأنبياء بل وُصف بعض الأنبياء بأنهم كانوا من أهل هذا الفن ومن المبرزين فيه موسى، وسليمان، بل إن اليهود قد وصفوا عيسى نفسه بأنه كان ساحراً وأنه درس هذا الفن في مصر.

ولا تخلو أمة من وجود السحر والسحرة بها مهما إختلف حظها من الحضارة والتمدين، كما أن السحرة موجودون في كل القبائل الهمجية المنتشرة في بقاع عدة من آسيا وإفريقيا وأمريكا، وهم في هذه القبائل والجماعات البدائية الطبقة الوحيدة التي تشتغل بالحرف والصناعات.

ويذهب بعض علماء الإجتماع إلى أن جميع فنون السحر تقوم على أساس من المعتقدات الدينية، على أن البعض الآخر يميل إلى القول بأن السحر أقدم من كل المعتقدات في الآلهة والأرباب، بل يذهبون إلى أكثر من ذلك فيقولون إن بعض الظواهر الدينية البدائية تفصح عن أنها قد نشأت عن السحر. وليست الطقوس والشعائر الدينية ونظام الكهنوت هي الظواهر الإجتماعية الوحيدة التي يدل البحث على أنها أحدث عهد من السحر وأنها ترجع في أصولها إلى السحر، بل هناك كثير من مظاهر الحياة اليومية الأخرى عند الشعوب البدائية تتصل إتصالاً وثيقاً بالسحر ولا يصح القيام بها إلا بمصاحبة بعض الشعائر السحرية من رقي وتعازيم. الأمر الذي دعا البعض إلى القول بأن الرقي السحرية هي أقدم حقيقة في تاريخ الحضارة الإنسانية.

ومن فريد ما يروى في هذا الباب أن الرقي والتعازيم التي يتلوها الساحر بصوته ذي الجرس الذي يجمع بين الرهبة والإبتهال كانت الأصل الذي نشأ عنه فيما بعد فن الموسيقى.

وليس من شك أيضاً أن الشعر والفنون التشكيلية كالنحت والتصوير وكذلك الطب والرياضيات والفلك والكيمياء كلها من العلوم التي لها

أصول في فن السحر.

السحر في الصين:

إن أمة الصين من أقدم الأمم ذات الحضارات العريقة وقد نما فيها السحر وترعرع منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، ويرى البعض أن كتاب الحكيم الصيني الشهير كونفشيوس المعروف بإسم «كتاب التغيرات» وهو من أقدم المؤلفات الصينية إن لم يكن أقدمها هو في صيغته الأولية عبارة عن أسلوب من الكهانة وعلم الغيب. ومن الحقائق المعروفة أن كثيراً من الأعمال والتجارب السحرية التي كانت تزخر بها كتب السحر الأسود في أوروبا إبان العصور الوسطى قد نقلت عن كتب السحر الصينية أو أنها كانت على الأقل وثيقة الشبه بالأعمال والأعاجيب السحرية التي كانت تمارس في بلاد الصين القديمة.

وقد إشتهرت الصين القديمة بصفة خاصة بالمرايا السحرية إذ كانت هذه المرايا أشهر الوسائل السحرية التي يستخدمها السحرة في سحرهم لأنها كانت في إعتقادهم أقوى الوسائل لمحاربة الجن والشياطين. والسحر في جوهره عبارة عن الفن الذي يقصد به مهادنة الجن والشياطين وطلب عونهم على أداء الأعمال العجيبة الخارقة للطبيعة أو محاربة هؤلاء الجن وإفساد ما قاموا به من أعمال خبيثة ترمي إلى إفساد النظام الطبيعي الذي تسير عليه الحياة في هذه الدنيا.

وكان الإعتقاد أن الساحر يستطيع بسحره أن يعكس على صفحة هذه المرآة السحرية صورة الشيطان الذي تسبب في إيقاع الضرر أو المرض

بالشخص الذي جاء الساحر يطلب عونه على تخليصه ما حل به من أفعال هذه الأرواح الخبيثة. فإذا ما وقعت الأنظار على صورة هذا الشيطان المنعكسة على صفحة المرآة السحرية فإن عمله يبطل ويبرأ الشخص من علته أو تنزاح عنه بليته.

ولم تذكر لنا الكتب الصينية القديمة شيئاً عن كيفية صناعة هذه المرايا السحرية على أن بعض الكتاب الصينيين القدماء قد أشار إشارة عابرة إلى هذه المرايا السحرية فقال إنها كل مرآة كبيرة الحجم بلغ منها القدم مبلغاً كبيراً. وإن مثل هذه المرايا يجب أن تحجب عن الأنظار فلا تستعمل لأي غرض من الأغراض التي تستعمل من أجلها المرايا إنما ينظر إليها فقط بقصد طرد هذه الأرواح الخبيثة التي تحل أحياناً في النفوس البشرية فتسبب لها الكثير من البلايا والمصائب.

السحر في مصر القديمة:

لقد كان للسحر أثره العميق في حياة قدماء المصريين حتى إنه ليصعب علينا نحن أبناء القرن العشرين أن ندرك كيف كان المصريون القدماء يخضعون هذا الخضوع التام للسحر الأمر الذي طبع حياتهم اليومية بطابع خاص بل لقد غدا السحر إبان الأسرة الرابعة واحدة من الفنون المعترف بها من الجهات الرسمية في الدولة المصرية، ولذلك رأينا أن نفرد فصلاً خاصاً من هذا الكتاب للسحر عند قدماء المصريين.

وتدل الكتابات والنقوش المصرية القديمة على أن المصريين القدماء كان لهم أيضاً باعٌ طويلٌ في فنون الكهانة والتنجيم وقد ظهر إهتمامهم

بهذه الفنون منذ عهد الطفولة القديمة، وحفظت لنا أوراق البردي التي يرجع تاريخها إلى عام ١٤٥٠ قبل الميلاد كثيراً من أفعال السحرة والرقى والتعاويذ التي كان يستخدمها السحرة لجعل عملائهم يرون في منامهم ما سوف يحدث لهم من أحداث في مستقبل حياتهم، وهذا يدلنا على الصلة الوثيقة التي كانت بين الكهانة والسحر في مصر القديمة.

وكان قدماء المصريين يعتقدون أكثر من ذلك في طوالع السعد والنحس فبعض الأيام في أنظارهم سعيد الطالع والبعض الآخر مشئوم الطالع. وقد عثر في بعض المقابر على جداول خاصة بطوالع النجوم لها دلالات تنجيمية معينة، كما كان للمصريين آلهة لكل شهر ولكل يوم من الشهر بل ولكل ساعة من ساعات اليوم. وكان لبعض الأعداد دلالات تنجيمية خاصة كالعدد ٧ والعدد ١٢. ويرى البعض أن الزيج نفسه أو دائرة البروج هي من إختراع قدماء المصريين. وقد أكد بعض كتاب اليونان والرومان والقدماء أن علم التنجيم قد إخترعه رجال الدين في مصر على أن الأغلب أن البابليين قد سبقوا المصريين في هذا المضمار.

سحر بابل:

تدل الكتابات والنقوش التي خلفها البابليون والأشوريون وكذلك اللوحات المكتوبة بالخط المسماري على أن فنون السحر كان لها النصيب الأكبر من هذه الكتابات والنقوش. ونستدل من هذه الآثار أن الخوف من الجن والشياطين كان الظاهرة الأساسية في ديانة البابليين والأشوريين وأن الحياة اليومية عند هذه الأقوام كانت متأثرة على الدوام بالسحر، وكانت

مدينة أردو القديمة إحدى المراكز الرئيسية للثقافة السومرية موطناً كبيراً للمحكمة القديمة أي لفنون السحر. وكانت المؤلفات السومرية القديمة تعج بالموضوعات السحرية كالترانيم والرقي والتعاويذ.

وقد حفظ لنا أشور بأنيبال ملاك أشور من عام ٦٦٨ إلى عام ٦٢٦ قبل الميلاد في مكتبته كثيراً من النصوص الدينية والسحرية وقد جمع هذه النصوص من المعابد المختلفة التي كانت منتشرة في المدن القديمة وكان أغلبها مكتوبة باللغة السومرية.

والخلاف لايزال قائماً بين العلماء في أقدمية ظهور الفلك والتنجيم بين سكان وادي دجلة والفرات. إذ يرى البعض أن ديانة قدماء البابليين كانت قائمة على التنجيم وأن جميع آرائهم ومعتقداتهم كانت متأثرة بهذا العلم وأنهم قاموا منذ أقدم الأزمنة بتدوين بعض المشاهدات والظواهر الفلكية وإكتسبوا بعض المعارف الفلكية القائمة على المشاهدة ولكنها ضاعت بعد أن إضمحلت ثقافتهم وتغلبت عليها بعض الثقافات الأخرى. ويعارض آخرون هذا الرأي ويقولون إن المعارف الفلكية لم تظهر بين سكان دجلة والفرات إلا بعد ظهور الكلدانيين على مسرح التاريخ، بل إنهم ينكرون معرفة هذه الأقوام بالكواكب السيارة السبعة وعلامات الزيج.

ومما لا جدال فيه أن الرقم سبعة قد تواتر ظهوره في الدين والأساطير والسحر وذلك منذ الألف الثالثة قبل الميلاد. مثال ذلك الملحمة البابلية الخاصة بالخلق ففيها ذكر للرياح السبع وأرواح العواصف السبع والأمراض الخبيثة السبعة وأقاليم العالم السفلي السبعة والمناطق السبع للعالم العلوي

والسماء وغير ذلك. ولم يذكر أحد تفسيراً مقنعاً لهذا التشبث بالرقم سبعة اللهم إلا لوجود سبعة كواكب سيارة تؤثر في عالمنا الأرضي تأثيراً فعالاً.

ومهما يكن من الأمر فإن المؤلفات والنصوص البابلية القديمة الخاصة بالسحر يمكن تصنيفها في ثلاث مجاميع رئيسية: فهناك النصوص التنجيمية وفها تذكر الكواكب على أنها آلهة تؤثر في حياة الناس وفي أفعالهم ومصائرهم ثم هناك اللوحات الخاصة ببعض الوسائل المستعملة في الكهانة والتنبؤ بالغيب. أما المجموعة الثالثة فهي الرقي والتعاويذ التي كانت تستخدم لدرء شرور السحر الأسود وطرد الأرواح الخبيثة التي تحل بالأبدان فتسبب لأصحابها الأضرار والأمراض، إذ كان الإعتقاد أن السبب في المرض يرجع بوجه عام إلى الشياطين والأرواح الخبيثة ولإبراء الشخص من مرضه يجب طرد هذه الأرواح من البدن ومن ثم كان الطب في الأزمنة القديمة يعد فرعاً من السحر.

وقد كانت هذه الأرواح الخبيثة أيضاً مسئولة عن هذه الكوارث التي تحل بالعالم من وقت لآخر كالزلازل والبراكين والعواصف الكاسحة والفيضانات المغرقة ومن ثم كان من الضروري إستخدام التعاويذ لمنع عبث هذه الأرواح بالنظام العام الذي يسير العالم على مقتضاه. وقد رتبت هذه التعاويذ في لوحات مختلفة لكل نوع منها أثره الخاص في ناحية من هذه النواحي.

وكان يوجد أيضاً إلى جانب هذه اللوحات نصوص طبية وأخرى تلقى في الإحتفالات المختلفة تضم بعض الطقوس والشعائر السحرية.

كذلك كان لترانيم المديح والثناء والملاحة الدينية التي لا يمكن عدها لأول وهلة بين التعازيم والرقى دلالاتها السحرية.

وتدل التعازيم المختلفة على أنه كان هناك إلى جانب قوة الألفاظ ذاتها المستخدمة في هذه التعازيم – عوامل أخرى تدخل في أعمال السحر ولها قوتها السحرية كما توضح لنا ذلك تلك التعزيمة البابلية التالية:–

«إنهضي أيها الآلهة العظيمة وإستمعي لشكاتي.

إمنحيني العدالة وخذي علماً بحالي.

لقد صنعت تمثالاً لساحري ولساحرتي.

لقد وقفت ذليلاً أمامك وعرضت عليك قضيتي.

إنه بسبب هذا الضرر الذي ألحقاه بي.

وبسبب هذه الأشياء النجسة إلى تناولاها .

فلتمت هذه الساحرة وإمنحيني الحياة أيتها الآلهة.

ولتتحطم تميمة هذه الساحرة وليفسد سحرها.

وليطهرني الغصن المقطوف من شجرة البينو.

وليخلصني هذا الغصن. ولتتبدد رائحة فمي الخبيثة في الهواء.

ولينظفني عشب المشتكل الذي يملأ الأرض.

وقبل أن تجعلوني في إشراق عشب الكنكل.

فلأكن في نظافة عشب اللاردو وبهائه.

إن تعويذة الساحرة خبيثة ضارة.

فلترتد كلماتها إلى فيها وليقطع لسانها.

ولتبتليها آلهة الليل بآفة لسحرها.

إن حراس الليل الثلاثة يبطلون سحرها الآثم.

وليكن فيها شمعاً ولسانها عسلاً.

ولتذب الكلمة التي قالتها وكانت السبب في تعاسي كما يذوب الشمع.

ولتذب التعويذة التي عملتها كما يذوب العسل.

ولتقطع عقدة السحر التي عقدتها إلى شطرين وليتلاشى كل ما صنعته».

هذه إحدى التعازيم التي كانت مستعملة قديمة في بلاد بابل وأشور ومنها يتبين أنهم كانوا يستخدمون في سحرهم التماثيل السحرية والعقد وخصائص بعض الأشجار والأعشاب وكانت التماثيل السحرية تصنع في ذلك العهد القديم من الطمي والشمع والدهن وغير ذلك من المواد كما كانت تستخدم بطرق مختلفة.

وكان السحرة البابليون يصنعون في بعض الأحيان تمثالاً يمثل عدوّاً من الأعداء ثم يكبلون هذا التمثال بحيث لا يستطيع الكلام أو الحركة فكان أثر ذلك ينصب على الشخص ذاته الذي يمثله هذا المثال. وكانت تصنع هذه التماثيل أيضاً كي تحل بها الأمراض التي حلت بشخص يراد إبراءه من

هذا المرض، وذلك بوسائل سحرية خاصة. وكانت هذه التماثيل تذبح في بعض الأحيان وتدفن.

ولعل هذه الأعشاب الواردة أسماؤها في التعويذة السابقة كانت من الأعشاب الشائعة الإستعمال في السحر. ودلت البحوث على أنه كانت هناك مواد أخرى مستعملة في السحر مثل الخمر والزيت والملح والتمر والبصل واللعاب. كما أن هناك من الشواهد ما يدل على إستخدام عصا الساحر التي لانزال نراها إلى اليوم في أيدي من يدعون العلم بهذا الفن العجيب. وقد إستعملت أيضاً الجواهر الثمينة والمواد الحيوانية المختلفة وبعض أعضاء الحيوان في الأغراض السحرية.

وإستعمل السحرة البابليون أيضاً في تلك الأزمنة البعيدة الأشربة والمعاجين المختلفة ذات التأثيرات السحرية كما قاموا ببعض الشعائر السحرية كإيقاد النيران وتدخين البخور.

وتدل الأخبار والروايات المتصلة بنوحٍ وفلكه أن بعض أجزاء هذا الفلك قد صنعت بشكل خاص له دلالته السحرية فهم يذكرون أن الصاري وأسقف قمرات سفينة نوح كانت مصنوعة من خشب الأرز وهو خشب من طبيعته إفساد أعمال السحرة والشياطين.

السحر في بلاد الإغريق:

وهذه أمة أخرى من الأمم القديمة العريقة في الحضارة ونقصد بها أمة الإغريق التي ذاع صيتها قديماً في العلم والفلسفة والشعر والفنون القديمة. وكان الرأي عند بدء عصر النهضة والتنوير وقيام العلماء بدراسة التراث

اليوناني والروماني القديم دراسةً نقديةً عميقةً أن أمة اليونان كانت مبرأة من أعمال السحر إذا قورنت بغيرها من الأمم القديمة وأن أمة قد أنجبت أمثال أرسطو وأفلاطون وأكسينيفون وأوريبيدس وغيره من أساطين الحكمة والفن لا يمكن أن يستهويها فن كفن السحر الذي لا يعد من الفنون الجميلة.

على أن هذا الرأي الذي يذهب إلى تبرئة اليونان القديمة من السحر والسحرة لم يقو على إحتمال معاول النقد الحديث الفنون الإغريق وفلسفتهم. فإنه لا يصعب على الباحث أن يلمس آثار السحر في الديانة الإغريقية وفي التاريخ والأدب الإغريق المليء بالرموز والكنايات السحرية. فالأساطير الإغريقية مليئة بالأفعال السحرية العجيبة التي تنقل الكائنات من حال إلى حال وبأخبار السحرة والكائنات العجيبة التي تجمع بين خصائص الإنسان والحيوان، كما أن مؤلفات هزيود وهي من أقدم الآثار الإغريقية المكتوبة إن لم تكن أقدمها بها ذكر للأيام السعيدة الطالع والأخرى المنحوسة الطالع. وكان هناك الكهنة القائمون على خدمة معابد آلهة الإغريق. وقد ورد في الإلياذة أن كاهن معبد أبوللو إله الشعر كان في إستطاعته بأعماله السحرية أن يقضي على الطاعون عندما يريد ذلك.

والإسبرطيون الذين أعجب الفلاسفة بدستورهم ونظامهم التعليمي كانت حياتهم اليومية تتسم في الواقع بسمات الحياة اليومية البدائية التي تغلب عليها الطقوس والشعائر التي تمت إلى السحر بصلة كبيرة. كما أن المؤرخ اليوناني المشهور هيرودتس ويكنى بأبي التاريخ كان يميل بصفة خاصة إلى تدوين القصص والروايات المتصلة بالتكهنات العجيبة والهواتف التي تخرج من باطن الأرض أو تنبعث من كبد السماء فيفسرها السحرة كما

يريدون ويحبون، فكان تاريخه المشهور مليء بمثل هذه القصص والأعاجيب كما أن كتابات إكسينيفون مليئة بأخبار القرابين والكهانة والرؤى والأحلام وما تنبيء عنه من خيرات أو شرور.

ولا يقف ذكر هذه الأعاجيب والتكهنات الغريبة عند الكتاب الإغريق العاديين بل إن آخرين ممن عرفوا بالحكمة والفلسفة مثل أفلاطون أو التعمق في الأدب مثل أوروبيدس قد ذكروا الرقي والتعاويذ والأشربة التي تولد العشق والهيام وغير ذلك من الأعمال السحرية.

ونحن إذا أدخلنا في إعتبارنا كل هذه الشواهد الثابتة في كتب التاريخ والأدب والفلسفة فلا يسعنا إلا القول بأن الإغريق لم يكونوا أقل إنغماساً في السحر من غيرهم من الأمم القديمة وأن السحر كان عنصراً هاماً من عناصر الحضارة الإغريقية.

والغريب أن علم التنجيم وغيره من العلوم الغيبية لم تظهر في بلاد الإغريق في شكلها المتقدم إلا في العهد الهلليني الذي بلغت فيه الحضارة اليونانية أوجها. وتذهب الروايات إلى أن شخص يدعى أوثانسي قد نقل فنون السحر في شكلها المتقدم إلى بلاد الإغريق في عهد الحروب التي إستمرت بين الفرس والإغريق ولم تكن هذه الفنون بدعة جديدة في نظر الإغريق إنما كانت بمثابة صور أسمى وأكثر تقدماً من الصور السحرية الغليظة البدائية التي كانوا يمارسونها حتى ذلك الوقت.

وقد فسر بعض الباحثين المحدثين كثيراً من الأساطير والإحتفالات اليونانية القديمة تفسيراً سحرياً بل فسروا أيضاً الألعاب الأولمبية والدراما

اليونانية هذا التفسير السحري. ويرى البعض في زيوس كبير آلهة الإغريق شخصية الساحر البارع الذي في إستطاعته أن يتخذ أية صورة من صور الكائنات حتى يستطيع أن يتعقب عشيقاته وما كان أكثر من غراميات هذا الإله كما تقص علينا هذه الأساطير.

وقد غالى بعض الكتاب فربطوا بين كثير من مظاهر الحضارة الإغريقية والسحر. على أن ذلك لم يكن سوى رد فعل للدعوة التي ظهرت في مستهل عصر النهضة وهي التي تذهب كما قلنا سابقاً إلى أن مظاهر الحضارة اليونانية كانت مبرأة من السحر إذا قيست بمظاهر الحضارة في الأمم القديمة الأخرى.

ولم تكن الفلسفة اليونانية هي الأخرى مبرأة من السحر. فقد قال زيللر **Zeller** وهو أعمق وأدق من كتب في الفلسفة اليونانية إن الفيلسوف أمبيدوقليس كان يعتقد في نفسه القدرة على السحر. نستدل على ذلك من كتاباته ذاتها فقد ذكر أن لديه القوة على مداواة الشيخوخة والمرض وعلى إثارة العواصف أو تهدئتها وعلى إستنزال المطر أو حبسه بل وعلى إستدعاء الميت إلى الحياة ثانية.

وكان أفلاطون حذراً غاية الحذر في حديثه عن السحر في كتبه الفلسفية وخاصة في قوانينه. فهو يذكر أن رجال الطب والأنبياء والعرافين هم وحدهم الذين يستطيعون فهم طبيعة السموم التي تعمل عملها بشكل طبيعي وفهم أشياء أخرى مثل التعاويذ والعقد السحرية والتماثيل الشمعية. ولما كان غيرهم من الناس ليست لديهم أية معرفة يقينية عن مثل

هذه الأشياء فمن شأنهم أن لا يأبهوا لها وأن يحتقروها. وهو يعترف مع ذلك أنه ليس هناك من فائدة في إقناع أكثر الناس بحقيقة هذه الأشياء وأنه من الضروري سن القوانين لمحاربة السحر والكهانة. والظاهر أن آراء أفلاطون عن الطبيعة مشبعة بعقائد مستمدة من مجوس المشرق أو على الأقل بعقائد أكثر صلة بالسحر منها بالعلم الحديث كما أنها متمشية مع علم التنجيم. وهو يسبغ على الأشياء المادية سمة إنسية ويخلط بين الخصائص الروحية والخصائص المادية.

ويحاول أفلاطون أيضاً أن يفسر السحر تفسيراً طبيعياً أو عقلياً فهو مثلاً يقول عن العرافة عن طريق الكبد إن الكبد هو بمثابة المرأة التي تنعكس عليها أفكار المرء وصورة النفس. وهو يتحدث عن الحب الموائم بين العناصر على أنه مصدر الصحة والخصب للنبات والحيوان والإنسان وأن الحب المتهور بينها هو علة الطواعين والأمراض وأن دراسة وفهم هذين النوعين من الحب وصلتهما بدورات الأجرام السماوية وتغير فصول السنة هو ما يسمى بعلم الفلك أو علم التنجيم وأساس قانونه سيطرة الكواكب على المخلوقات الدنيا.

وقد ذكرت بعض المصادر التاريخية أن السحرة اليونانيين وخاصة في تساليا قد قاموا بأعمال سحرية غاية في القسوة والفظاعة. وكان معظم هؤلاء السحرة من النساء اللواتي دمرتهن الرغبة الجنسية الجامحة التي لم يستطيعوا إشباعها أو الحد من ثورتها أو العاهرات اللواتي تقدم بين العمر فإنصرف عنهن المحبون والمعجبون أو النسوة اللواتي إنغمسن في كل ما هو مشين أو قبيح. لقد أكلت الغيرة قلوب هذه المخلوقات التعسة فلم تجد

أمامها من ميدان لإشباع رغباتها المكبوتة فيه إلا القبور فكانت تتسلل ليلاً إلى المقابر المظلمة وتنتهك حرمة القبور المقدسة وتحتضن بشبق بالغ أجساد الشباب الباردة التي توفيت حديثاً.

وكانت هاته النسوة في الوقت ذاته تضمر الحسد والبغض لصغار الأطفال لأنهم في أنظارهن ثمرة هذه العاطفة المتبادلة بين الرجل والمرأة لذلك كانوا يختطفون هؤلاء الأطفال ويكتمون أنفاسهم في صدورهم البريئة انتقاماً من ذويهم لأنهم لم يستطيعوا أن يكونوا مثلهم لهم مثل هذه الذرية التي تعتبر زينة الحياة الدنيا.

وقد ذكر هوراس أخبار بعض هؤلاء النسوة مثل «كانديا» وكانت هذه المرأة اليونانية تدفق الأطفال حتى رؤوسهم ثم تتركهم يموتون جوعاً بينما تضع الطعام حولهم دون أن يستطيعوا الوصول إليه. ولعل أقسى هؤلاء النسوة هن اللواتي كن يقطعن أوصال هؤلاء الأطفال ثم يقومون بإذابة شحمهم في أحواض نحاسية ويركبون من هذا الدهن الآدمي دهاناً يخلطونه بعصير بعض النباتات كالسيكران والخشخاش ثم يضمخون بهذا الدهان أجزاء حساسة من أبداهن فيشعرن بلذة غريبة آثمة كما كانوا أحياناً يضمخن صدوغهن وآباطهن ثم يتركن أنفسهن إلى أحلام اليقظة المليئة بالشهوات الجامحة.

وكان بعض هؤلاء النسوة يخرجن إذا ما جن الليل إلى الغابات والفلوات ويجمعن على ضوء القمر بعض الأعشاب والنباتات الخاصة يستخرجون من بعضها سائلاً يعرف بشراب الحب ببيعونه لكل محبٍ أخفق

في حبه كما كانوا يستخرجون من البعض الآخر سماً زعافاً يبيعونه لتجار الموت وكانت هذه الأعمال كلها أساساً للسحر الأسود الذي إنتشر إنتشاراً كبيراً في العصور الوسطى وأخذ الناس يتعقبون النسوة اللواتي يقمن بهذا السحر الأسود في تلك العصور ويحكمون عليهن بالموت حرقة وقد كثر وجود هذه النسوة الساحرات في إسبانيا وإيطاليا بصفة خاصة حتى أواخر العصور الوسطى.

ومجمل القول أن الحضارة اليونانية القديمة لم تكن مبرأةً من السحر وأن الحياة اليومية في بلاد الإغريق كانت خاضعة إلى حد كبير لتكهنات الكهان وسحر الساحرين.

الفصل الثاني

السحر عند قدماء المصريين

كان للسحر أثره البالغ على تفكير قدماء المصريين وعلى مظاهر الحياة عندهم وذلك منذ أقدم العهود التاريخية حتى إنه ليصعب علينا أن ندرك كيف كان للسحر كل هذا الأثر البالغ على تفكير القوم وأعمالهم. وهناك من الأدلة الواردة في أوراق البردي التي تم العثور عليها ما يثبت أن السحر في الأسرة الرابعة أي منذ أربعة آلاف سنة تقريباً كان فناً أو صناعة معترفاً بها بين الفنون والصناعات المصرية.

ومهما يكن من الأمر فإن الإعتقاد في السحر لم يكن أمراً شائعاً في مصر قبل عهد الأسر أو قبل العهود التاريخية المصرية فحسب، بل كان السحر في مصر القديمة أقدم من الإعتقاد في الآلهة ذاتها. ولما تطورت الحياة الدينية في مصر وأصبحت للديانة المصرية نظمها ومعتقداتها وطقوسها وشعائرها الخاصة كان السحر لايزال عنصراً من العناصر الأصلية في هذه الديانة المصرية. وقد تأثر الأدب المصري القديم وكذلك الأساطير المصرية بالأفكار السحرية وقد يبدو ذلك على أتمه في أسطورة إيزيس وأوزوريس. وكان المصريون يلجأون إلى الرقى والتعاويذ لطرد الأرواح الخبيثة بل كانوا يعتقدون أيضاً أنهم يستطيعون إرهاب الآلهة ذاتها أو إستعطافها بهذه الرقى والتعاويذ. كما كانوا يستطيعون بها إستحضار

الأرواح من العالم غير المنظور وتغيير مجرى الحياة الطبيعية بالخوارق والأعاجيب.

وكان السحر أيضاً يعد من الأمور الجوهرية عند تحضير الموتى للإنتقال إلى العالم الآخر. فنجد مثلاً أن إجراءات التحنيط والدفن عند قدماء المصريين كانت متصلة إتصالاً وثيقاً بالسحر فقد كانوا يتلون عند كل عملية من عمليات التحنيط الرقى والتعاويذ والعبارات السحرية الخاصة التي بدونها لا يمكن أن تتم عملية التحنيط كما يجب.

ونجد أكثر من ذلك أن نصوص الأهرام المكتوبة باللغة الهيروغليفية وهي أقدم صفحة من صفحات الفكر الإنساني إذ يرجع تاريخها إلى الأسرتين الخامسة والسادسة (٢٦٢٥ – ٢٤٧٥ ق.م.) تحوي آثاراً واضحة من السحر بل لقد عدها بعض علماء الآثار مجرد مجموعة من التعاويذ والرموز السحرية. كما أن المناظر والرسوم المنقوشة على جدران قبور قدماء المصريين مثل قبور نبلاء الأسرتين الخامسة والسادسة قد نقشت بقصد سحري إذ كان القصد منها أن تتحقق محتوياتها في الحياة الأخرى. وقد أخذ قدماء المصريين منذ الأسرة الثانية عشرة يرسمون داخل توابيت الموتى المناظر المألوفة لدى المتوفى لهذا الغرض ذاته.

وفي عهد الإمبراطورية المصرية القديمة كان كتاب الموتى المشهور عبارة عن مجموعة من الصور السحرية والتعاويذ والرقى يستخدمها المتوفي عندما ينتقل إلى الحياة الأخرى. ولما كان هذا الكتاب لم يظهر إلا في عهد الإمبراطورية المصرية فقد ذكر بعض علماء الآثار المصرية أنه كان يدفن

أيضاً مع الفراعنة في عهد الدولة القديمة كتاب يضم بعض الألفاظ والعبارات السحرية وكان الغرض من هذا الكتاب وغيره من النصوص التي تنقش على القبور والتوابيت وكذلك التمائم والتعاويذ المختلفة إخضاع الآلهة السلطان المتوفي حتى يستطيع إجبارهم على تنفيذ رغباته وإرادته. ويرى البعض أن هذه النقوش الجنائزية قد إزدادت زيادة ملحوظة في العهد المصري المتأخر وذلك تحت تأثير الكهنة ورجال الدين.

ولم تكن تخل مظاهر الحياة اليومية عند قدماء المصريين من آثار السحر حتى إن المصري في العهد القديم لم يكن يحضر طعامه أو يتهيأ للنوم إلا بعد تلاوة بعض التعاويذ والصيغ السحرية الخاصة.

ومن المعروف أيضاً أن الطب عند قدماء المصريين كان مشحوناً بالسحر والطقوس السحرية. فالعلاج الرئيسي عندهم كان عبارة عن مجموعة من الرقى والتعاويذ يتلوها عند رأس المريض فيبرأ من مرضه. وكان الأطباء المصريون يستخدمون في علاجهم أنواع مختلفة من الأعشاب النباتية يخلطون بعضها بعض مع تلاوة بعض الألفاظ والعبارات السحرية فتكسبها قوتها الشافية وهم كانوا يفضلون العقاقير المركبة من جملة عناصر على العقاقير البسيطة التركيب. كما كانوا يستخدمون بعض أجزاء الحيوان في تركيب الأدوية والعقاقير خصوصاً ما كان متصلاً منها بالأعضاء التناسلية إذ كانوا يعتقدون أنها تمنح الحياة وتطيلها. وإستعملوا أيضاً الأجزاء القذرة من جسم الحيوان إذ كانوا يرون أنها طاردة الشياطين الأمراض وذلك بسبب خصائصها الباعثة على الإشمئزاز.

والظاهر أن المصريين القدماء لم ينظروا إلى الأمراض على أنها من أفعال الجن والشياطين والأرواح الخبيثة مثل القدر الذي كان عليه هذا الإعتقاد عند البابليين والأشوريين. على أن ما لدينا من كتابات ونصوص مصرية قديمة لا تقدم لنا المعلومات الكافية في هذا الموضوع، ولعل السحر في مصر القديمة كان يستخدم لمعالجة الأمراض بوجه عام سواء أكان المرض ينسب إلى فعل الأرواح الشريرة أو يرجع إلى أسباب أخرى.

وقد إزداد الإلتجاء إلى السحر في عهد الدولتين الوسطى والحديثة أكثر مما كان عليه الحال في الدولة القديمة نستدل على ذلك من وفرة النقوش والكتابات السحرية التي تم الكشف عنها ويرجع تاريخها إلى هاتين الدولتين.

وكانت مصر القديمة موطن الفنون والصناعات المختلفة ويستدل من تاريخ هذه الفنون والصناعات أنه لم تكن تتم أية عملية من العمليات الصناعية أو الكيماوية إلا بمصاحبة بعض الصيغ الدينية والعبارات السحرية التي كانت تعتبر أساسية النجاح هذه العمليات كما كانت أساسية في إبراء المرضى.

ويرجع علم الكيمياء القديم إلى أعمال المصريين القدماء المشتغلين بصياغة الذهب والأخلاط المعدنية من ناحية كما يرجع من ناحية أخرى إلى نظريات وآراء فلاسفة الإغريق عن أصل العالم والمادة الأولى والعناصر الأربعة. ثم إن كلمة كيمياء ذاتها **Chemistry** مشتقة هي نفسها من إسم مصر القديم وهو «كمت» **Qemt** ومعناه الحرفي أسود دلالة على طمي

النيل.

وكان يطلق هذا الإسم أيضاً على المسحوق الأسود الذي كان يستخرج من الزئبق أثناء القيام بتركيب الأخلاط المعدنية المختلفة. ويقول بعض المؤرخين إن المصريين القدماء كانوا يعتقدون أن هذا المسحوق هو أساس جميع المعادن وله خصائص عجيبة غريبة وكانوا ينظرون إليه على أنه من عين الحسد الذي سيكون لأوزوريس في العالم السفلي وكلاهما أصل الحياة والقوة في أنظار قدماء المصريين.

وكانت هناك صلة وثيقة بين السحر المصري والسحر اليهودي يدل على ذلك الإشارات الكثيرة التي تؤيد هذه الحقيقة الواردة في كتب الأدب والدين.

ومن المعلوم أيضاً أن اليونانيين والرومانيين وغيرهم من أهل العالم القديم كانوا يرون أن السحر المصري أسمى بكثير وأكثر عمقاً من سحر البلاد الشرقية الأخرى. وكان سحرة البلاد الأخرى القريبة من مصر يسعون جهدهم لتقليده أعمال السحرة المصريين والتشبه بهم في كل ما يصنعون.

ومعلوم من القرآن والكتاب المقدس أن النبي موسى كان من الإسرائيليين الذين شبوا في بلاط فرعون وبرزوا في فنون السحر. وقصة موسى مع سحرة فرعون معروفة مشهورة إذ ألقى سحرة فرعون حبالهم وعصيهم فإذا هي حيات يركب بعضها بعضاً ثم ألقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان مبين إبتلع جميع ما ألقى السحرة من حبال وعصى. ثم إن موسى

قد شق البحر أيضاً بعصاه عندما خرج هو وجنوده من مصر إلى فلسطين وهذه كلها أعمال واردة في الكتب المقدسة والتواريخ وهي دليل على ما بلغه السحر في مصر في ذلك العهد البعيد.

وكان السحر في الوقت الذي تبارى فيه موسى مع سحرة فرعون قد بلغ منتهى إزدهاره وعنفوانه وأصبح عنصراً هاماً من عناصر الديانة المصرية.

ويقال إن ولد رمسيس الثاني كان مبرزاً في فنون السحر وقد إشترك مع سحرة فرعون في المباراة السحرية مع موسى وذلك حوالي عام ١٣٠٠ قبل الميلاد. ولشيوع السحر في مصر القديمة كان بعض الناس في الزمن القديم يعتقدون أن مصر مسكونة بجنس من السحرة الجبابرة. ولقد غدا إسم مصر نفسه مرادفاً لكلمة سحر.

ويذهب علماء الآثار المصرية إلى أن الشعائر والطقوس السحرية ترجع إلى ما قبل عهد الأسر بل وإلى ما قبل العهد التاريخي، وتذهب الأساطير إلى أن شم ولد نوح جاء إلى مصر وهو في الثلثمائة من عمره وذلك بعد الطوفان بمائة وتسعين عاماً وحكم مصر لمدة ١٦١ سنة أخرى وكان السحر وقتذاك في مرتبة عالية. وتذهب الرواية اليهودية إلى أن نوحاً نفسه كان ساحراً.

وقد حكت القصص الكثيرة الواردة في الكتابات المصرية واليونانية الإجراءات السحرية لإحياء الموتى. ومعروف أن قدماء المصريين كانوا يعتقدون أن الموتى سوف يبعثون في الحياة الأخرى ولكن هناك روايات

تدل على أن بعض محاولات السحرة المصريين كانت ترى إلى إعادة الحياة أو بوجهٍ أصح إلى إحياء البدن بعد موته وأن هذه المحاولات قد تمت بنجاح أكثر من مرة.

وقد حفظت لنا بعض الأساطير المصرية الكثير من الأعاجيب التي كان يقوم بها السحرة في مصر القديمة منها أنهم كانوا يصنعون التماثيل على هيئة التماسيح ثم يقرأون عليها بعض التعاويذ ويلقون بها في الماء فتنقلب تماسيح حية تفترس كل من يقترب منها أو يشقون الماء بلمسة من عصيهم فيستطيع أن يرى المشاهد قاع البحيرة أو النهر مثلاً. وتذكر الروايات أن الملك خوفو مشيد الهرم الأكبر كان يلذ له مشاهدة أعمال السحرة وأعاجيبهم، في يوم من الأيام كان يتحدث مع ولده الأمير ددف حور عن عجائب ما قام به السحرة فقال له الأمير إنه يعرف كثيراً من قصص هؤلاء السحرة ولكنه سوف يحدثه عن ساحر لايزال على قيد الحياة يدعى ددي وهو يبلغ من العمر عشراً ومائة سنة ولكنه على الرغم من كبر سنه يأكل في اليوم خمسمائة رغيف إلى جانب فخذ عجل ويشرب مائة قدر من الجعة وفي إستطاعته أن يرجع الحياة إلى جسد قطع رأسه بأن يفهم الرأس إلى الجسد، وفي إستطاعته أيضا أن يجعل أسداً يتبعه دون أن يقوده بحبل. وقد رغب خوفو في رؤية هذا الساحر ومشاهدة أعاجيبه فطلب من ولده الأمير ددف حور أن يحضر هذا الساحر، وكان يعيش في «دد سنفرو» إلى بلاطه. فأعدت السفن وأبحر الأمير في النيل مصعداً حتى وصل مدينة دد سنفرو حيث رست السفن ومن ثم سار في محفته المصنوعة من الأبنوس إلى مسكن الرجل الكهن فوجده راقداً على حصير يدلك

ساقيه أحد الخدم.

فتقدم إليه الأمير وسأله عن حاله ثم عرض عليه رسالته وأنه قادم إليه ليدعوه بإسم أبيه الملك خوفو لكي يحضر إلى بلاطه ويكون موضع الرعاية والإكرام وأن يقوم بعرض بعض أعماله السحرية على الملك الذي يحب أن يرى بنفسه الأعمال التي إشتهر بها ددي في أنحاء البلاد كلها. وقد رحب ددي بالأمير وأظهر إستعداده لتلبية دعوة الملك فهد الأمير ددف حور يده إليه وساعده على الوقوف ومشي معه حتى الشاطئ مادّاً بذراعه إليه ليعتمد عليها وهكذا سافرا معاً في سفينة الأمير متجهين نحو الشمال. وقد وضع تحت تصرف هذا الحكيم الساحر سفينتان لنقل أفراد أسرته وكتبه.

وعندما وصل الركب إلى بلاط خوفو أسرع الأمير ددف حور ودخل على الملك خوفو لينبئه بحضور الساحر. وما إن سمع خوفو بنبأ حضوره حتى أمر بأن يدخل عليه على الفور. وذهب جلالته إلى بهو الأعمدة بالقصر حيث أدخلوا عليه ددي هذا فقال جلالته: «كيف يا ددي أني لم أرك حتى الآن؟» فقال ددي: «من يُدَع يُجِب، لقد دعاني الملك وها قد أتيت». فقال الملك: «أحقاً ما يرويه الناس عنك من أنه في وسعك إعادة الرأس المقطوع إلى الجسد؟» فأجاب ددي: «نعم يا سيدي الملك إنني أستطيع ذلك». فقال الملك: «أحضروا إلى أسيراً من السجن لتنفذ فيه عقوبته» فقال ددي: «أرجو أن لا يكون هذا في إنسان يا سيدي الملك. فليأمر الملك بتجربة ذلك في حيوان». فجيء له بإوزة فصل عنها رأسها ووضع جسدها في الجانب الغربي من البهو ووضع رأسها في الجانب الشرقي من البهو وتلا ددي تعويذة سحرية فوقفت الإوزة وتحركت وكذلك

تحرك الرأس ولما بلغ كل منهما الآخر كانت الإوزة تصيح ثم جيء له ببطة فجرى لها ما جرى للإوزة. بعد ذلك أمر الملك بإحضار عجل فصل رأسه عن جسده فقرأ ددي تعويذة سحرية فوقف العجل. وهكذا أتي ددي بكثير من الأعاجيب مما جعل الملك خوفو يثق في حكمته وفي قوته السحرية.

ومهما يكن من الأمر فقد كان في إستطاعة المصريين أن يقوموا بأفعال عجيبة غريبة لا تقف عند حد إرهاب الشياطين أو إستحضار أرواح الموتى أو إحياء الأجساد الآدمية والحيوانية بعد موتها بل كانوا يقومون بأفعال سحرية يقصدون بها إرهاب إله الشمس أو إله القمر وغيرهما من الكائنات السماوية أو إجبار الأجرام السماوية على أن تبوح بأسرارها وبما سيحدث في المستقبل وألا يعملون على زعزعة السماوات وغير ذلك من الأعمال التي فوق قدرة البشر. وكانت هذه الأعمال وأمثالها تحتل مكانة عالية في أعين الكهنة المصريين وفي تعاويذه لأنهم هم أيضاً كانوا يمارسون السحر وكانت تعاويذه تضم في بعض الحالات تهديدات موجهة إلى الآفة ذاتها.

على أن قدماء المصريين قد برزوا بصفة خاصة في صنع الأحجية والتمائم وكانت التميمة الشائعة في الجعران المصنوع غالباً من الصلصال أو الحجر. وكان الجعران في مصر القديمة رمزاً لإله الشمس أي مصدر الحياة وكان الإعتقاد أنه إذا وضع الجعران في القبر مع الميت فإن له القدرة على إعادة الحياة إلى هذا الميت، وكان يتعين في هذه الحالة تلاوة بعض التعاويذ والألفاظ السحرية على جسد المتوفي قبل وضعه في القبر، وقد إنتقلت

هذه التمائم من مصر إلى بلاد الإغريق.

ومن السمات المتصلة بالإعتقاد السابق هو أنه لكي يجبر الساحر الأرواح والآلهة على إطاعة أوامره وإرادته سواء أكانت إرادة طيبة أو شريرة كان عليه أن يكون على دراية بالألفاظ الخاصة الباعثة على القوة والسلطان وعلى معرفة بأسماء الآلهة وهو بهذا يكون له القدرة على الأرواح والآلهة مهما كان عددها وقوتها وتسخيرها وفق إرادته.

ولم يكن البشر وحدهم هم الذين يمارسون السحر في مصر القديمة بل كانت الآلهة أيضاً لا تستغني عن السحر في تصريف أمورها إذ كانت تتخذ التمائم للحماية وتستخدم التعاويذ والصيغ السحرية لكي يقهر بعضها البعض وكانت إيزيس من دون جميع الآلهة الآخرين ربة السحر التي إشتهرت بوصفها عظيمة الشأن في كلمات السحر.

وكانت الصيغ السحرية التي يستعملها المصريون تنشأ غالباً عن فكرة واحدة فقد كان الساحر يفكر في حادث من حوادث الآلهة يكون هذا الإله قد أصاب فيه نفس النجاح الذي يود ذلك الساحر أن يحققه لنفسه. فكان يتخيل نفسه كما لو كان هو الإله ويتلو نفس الكلمات التى فاه بها الإله في ذلك الحادث، وما دام أثرها فيما مضى كان فعالاً قوياً فقد كان الساحر واثقاً من نفعها وإتيانها بالفائدة في حالته هذه أيضاً. فإذا أراد مثلاً أن يبرد حرقاً ويشفيه فإنه كان يستعمل دواء يتكون من لبن إمرأة تكون قد أنجبت ولداً بعد أن يتلو عليه الصيغة الآتية: «إبنك حوريس يحترق على الأرض الجافة، هل هناك ماء؟ لا ماء هناك. إن الماء في فمي ونيل يجري

بين ساقي إني آتٍ لأطفئ النار» وواضح أن هذه الكلمات قالتها إيزيس في الأسطورة المصرية الخالدة المعروفة بإسم «إيزيس وأوزوريس» فإن خادمة إيزيس تناديها لتخبرها بأن الكوخ الذي أخفت فيه الطفل الصغير حوريس من إضطهاد طيفون قد أمسكت به النار فتصرخ مرتاعةً طالبةً ماء ولكن لم يكن هناك ماء في متناول اليد ولكن الإلهة إيزيس الذكية عرفت كيف تساعد نفسها في هذا المأزق الحرج وتنطق بهذه الكلمات السابقة الذكر.

وكان الساحر يعتقد في أن ترديده لهذه الكلمات بعينها التي قامت بها الإلهة إيزيس سوف يطفيء آلام الجرح المحروق.

ولم يكن الأمر يخرج عن ذلك فيما يتصل بالرقى والتعاويذ التي كانت تتلى على العقاقير المختلفة مثال ذلك العقار الطارد للزكام وهو لبن إمرأة تكون قد أنجبت ولداً إذ كانت تتلى عليه التعويذة التالية:

«ألا فلتذهب أيها الزكام يا إبن الزكام، يا من تحطم العظام وتفسد الدماغ وتفصل الدهن وتمرض الفتحات السبع في الرأس، إن خدم رع يتوسلون إلى تحوت – أنظر إني أحضر وصفتك إليك، ودواءك إليك: لبن إمرأة أنجبت ولداً وكرات العطور. إن هذا يطردك وإن هذا يعافيك، إن هذا يشفيك، وإن هذا يطردك. أخرج على الأرض –رائحة كريهة– رائحة كريهة[1]».

ورقية البرد هذه مأخوذة من أسطورة خاصة بشيخوخة إله الشمس ومرضه، فالإله رع قد أصابه برد أدار رأسه فإلتمس أتباعه من إله العلم

[1] نقلاً عن كتاب مصر والحياة في العصور القديمة تأليف إدولف إرمان، الترجمة العربية، ص ٣٨٣.

دواءً فأحضره الإله في الحال وأعلن أن المرض لا يلبث أن ينصرف عنه.

وإذا كان الساحر في هذه الأحوال يردد كلمات الإله ويستعين بها في أعماله السحرية ففي أحوال أخرى كان يكفيه أن يدعي أنه هو الإله الذي يرغب أن يتملك قوته.

وكان السحر يزداد أثره ومفعوله إذا إستطاع الساحر بدلاً من إستخدام الإسم العادي للإله أن يسميه بإسمه الحقيقي أي بذلك الإسم الخاص الذي كان يمتلكه كل إله وتستقر فيه قوته فكل من عرف هذا الإسم الحقيقي إكتسب قوة صاحبه. فالإلهة إيزيس قد إستطاعت أن تجعل إله الشمس يكشف لها عن إسمه الحقيقي الخفي، ومن ثم أصبحت تستمتع بنفس القوة التي كان يستمتع بها هذا الإله. ومن أجل هذا كانت التعويذة التالية التي تشير إلى هذا الإسم من أقوى التعاويذ ضد التماسيح:

«أنا المختار من بين الملايين، الذي يخرج من العالم السفلي.

الذي لا يعرف إسمه أحد.

إذا نُطِق إسمه على مجرى الماء جف.

وإذا نُطِق إسمه فوق اليابسة جعل النار تشتعل.

أنا شو، صورة رع الذي يجلس في عين أبيه.

إذا كان هناك أحد في الماء (أي التمساح) يفتح فمه.

وإذا ضرب بذراعيه جعلت الأرض تسقط في الماء.

وجعلت الجنوب شمالاً والأرض تنقلب رأساً على عقب».

وكانت الصيغ السحرية على أشد ما تكون إذا تُليت بصوتٍ مرتفع، كما تكون أشد أثراً إذا كتبت أو نقشت، وهذا يفسر لنا كثرة الصيغ السحرية التي نقشت على المقابر وعلى توابيت الموتى. وكان الإعتقاد أنه كلما زاد عدد مرات كتابتها زاد اليقين في أثرها وقوة مفعولها.

وكانت الصيغ السحرية تتلى على أشياء مختلفة فتكسبها قوة سحرية خالدة. فمثلاً إذا تليت تعويذة التمساح السابقة على بيضة مصنوعة من الطمي وحملها معه البحار في سفينته فإن التمساح الذي يطفو على سطح الماء مهدداً البحار لا يلبث أن يغرق في جوف الماء.

كما كان في الإمكان عمل أشكال وتماثيل من الورق أو الشمع وتلاوة التعاويذ علها فإذا ما نقلت هذه الأشكال والتماثيل خلسة إلى بيت العدو جلبت عليه المرض والشقاء. وقد ذكرت الروايات أنه في عهد رمسيس الثالث دبر أشخاص من البيت المالك مؤامرة على الملك وكان الحريم هو مركز هذه المؤامرة إذ كان للملك محظية تدعي «تي» تآمرت مع سيدات أخريات من البيت المائلات ضد مولاهن الملك بقصد تنصيب «بنتورع» ولد «تي» على العرش. وقد إستحلت نساء القصر في سبيل الوصول إلى هذا الغرض جميع الوسائل حتى إنهن لجأن إلى السحر لكي يحدثن الضرر بالملك، فإن المشرف على الأبقار الملكية وهو رجل عالي المقام حصل على كتاب سحري من مكتبة فرعون الخاصة وصنع طبقاً لمواصفات الكاهن دمى معينة من الشمع تليت عليها التعاويذ وهربت إلى القصر بقصد إحداث الضرر والهلاك للملك.

وإعتاد المصريون القدماء أيضاً أن يصنعوا دمى صغيرة تمثل خدم المتوفي والآنية التي كان يستعملها في حياته ثم تدفن في المقبرة مع المتوفي بعد أن تُملأ بالقوة السحرية عن طريق تلاوة الصيغ السحرية وذلك بقصد أن يستعملها المتوفى في حياته الثانية. وكان ذلك هو الحال بالنسبة للحلى الصغيرة المصنوعة من الحجر أو القاشاني وتدفن مع الجثث المحنطة.

وكانت هناك تميمة تصنع من العقيق وتتلى عليها هذه الكلمات: «يا دم أزيس، ويا سناء إيزيس، وقوة إيزيس السحرية، ويا تميمة تحمي هذا الرجل العظيم. حذار من أن تأتي ضرراً يصيبه». فإذا أُلبس المتوفى هذه التميمة فإن إيزيس تحميه ويبتهج حوريس ويقر عينه حين يراها.

ولم يكن إستخدام هذه التمائم مقصوراً على الموتى فحسب بل كان الأحياء أيضاً يعلقونها بخيوط حول رقابهم للحماية. وكانت هناك أنواع مختلفة الأشكال من هذه التمائم توضع كقطعة وسطى في عقود من الخرز عثر على الكثير منها في أقدم المقابر. وفي العصر المتأخر أصبحت الآلهة والحيوانات المقدسة نفسها لا تستغني عن مثل هذه الوقايات.

وليس من شك أن هذا الإعتقاد الراسخ في قوة السحر قد عاق تقدم الوعي الثقافي عند قدماء المصريين إذ من ذا الذي يجشم نفسه أتباع الطريق الطبيعي المعتاد الذي غالباً ما يكون طويلاً وصعبة للوصول إلى نتيجة من النتائج في حين أنه يستطيع الوصول إلى نفس هذه النتيجة عن طريق القوى السحرية.

والطب عند قدماء المصريين كان مليئاً أيضاً بالرقى والتعاويذ التي

كانت تقرأ على العقاقير المختلفة لتكسبها القوة اللازمة. مثال ذلك كان من الواجب على المرء عند نزع كل ضماد أن يتلو الصيغة التالية: «قد خلص قد خلص بوساطة إيزيس. لقد خلص حوريس بواسطة إيزيس من كل شر إقترفه أخوه سيت نحوه عندما قتل أباه أوزوريس. أي إيزيس، أيتها الساحرة العظيمة، خلصيني من جميع المساوىء الحمراء ومن مرض الإله ومرض الآلهة. ومن الموت، والموت، ومن العدو، والعدوة اللذين يعترضاني كما تخلصت أنت وكما ولدت إبنك حوريس لأني دخلت النار وخرجت من الماء....».

وكان المريض عند تناول الدواء عليه أن يتلو التعويذة التالية: «تعال أيها الدواء تعال وإطرده من قلبي ومن أعضائي هذه، فالرقى عظيمة المفعول في الدواء».

الفصل الثالث

سليمان الحكيم بين النبوة والسحر

تذهب الروايات المختلفة إلى أن سليمان الحكيم كان أعظم السحرة على الإطلاق فقد كان له السلطان المطلق على الإنس والجن وسخر الله له الريح وكان يعرف منطق الطير والحيوان والهوام جميعاً.

والواقع أن السحر لم يرد في القرآن مرتبطاً باسم سليمان إلا في آية واحدة من سورة البقرة وهي: «وإتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحدٍ إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن إشتراه ماله في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون».

والذي عليه رأى أكثر المفسرين أن اليهود سواء من كان مهم في زمن سليمان –عليه السلام– أو في زمان مُحَّمد –عليه الصلاة والسلام– كانوا من السحرة الذين أتقنوا هذا الفن. وقد ذهب هؤلاء السحرة من اليهود إلى أن سليمان إنما أوجد هذا الملك العريض والجاه العظيم بسبب السحر به سخر الإنس والجن والريح التي تجري بأمره.

ومن الواضح أن في القرآن والتوراة إشارات كثيرة إلى عجائب الأفعال والخصال التي كانت لهذا النبي العظيم. في سورة الأنبياء الآيات: «ففهمناها سليمان وكلاًّ آتينا حكماً وعلماً وسخرنا مع داوود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين». «ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين». «ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك وكنا لهم حافظين».

وفي سورة النمل الآيات: «ولقد آتينا داوود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثيرٍ من عباده المؤمنين». «وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون».

وفي سورة سبأ الآيات: «ولسليمان الريح غدوها شهرٌ ورواحها شهر. وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير». «يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات إعملوا آل داوود شكراً وقليلٌ من عبادي الشكور». «فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين».

لقد حكم سليمان أرض الميعاد بعد وفاة أبيه داوود وكان ثالث ملوك إسرائيل وكان سنه عندما إعتلى العرش ثلاث عشرة سنة وقد ورث عن أبيه داوود نبوته وحكمته وعلمه وملكه دون سائر أولاده وكان لداوود – عليه السلام– تسعة عشر إبناً.

وكان أبوه يشاوره في كثير من أمور ملكه مع صغر سنه وذلك لوفور عقله وعلمه وحكمته. وتذهب الرواية أن الله تجلى لسليمان في منامه فسأله أن يهبه الحكمة فوهبه الله الحكمة ثم وهبه أكثر من ذلك الثراء العريض والمجد العظيم وغير ذلك من أنواع المناقب والمواهب. وكان ملكه ما بين الشام وإصطخر وقيل إنه ملك الأرض كلها.

وواضح من هذه الآيات القرآنية أن سليمان كان يسيطر على شياطين الإنس والجن فكان يسخر الجن لأغراضه كما كان يسخر الريح ومختلف الحيوان والطير. ولكنه لم يكن يأتي بهذه الأفعال العجيبة بفعل السحر إنما كان ذلك بإذن من ربه تعالى الذي وهب سليمان هذه المناقب والمواهب وخصه بها.

فسليمان الحكيم لم يكن ساحراً بالمعنى المقصود بهذه الكلمة إنما قد خصه الله بعلم من عنده وميزه بهذه الصفات والملكات وكان لها سليمان من الشاكرين. غير أن من قبائح أعمال اليهود أنهم نبذوا كتاب الله وأقبلوا على السحر ودعوا الناس إليه وكان هذا شأنهم في زمن النبي –صلى الله عليه وسلم–. ثم إن أكثر اليهود ينكرون نبوة سليمان –عليه السلام– ويعدونه ملكاً من ملوك الدنيا. وكانوا يرون أن سليمان إنما أقام هذا الملك العريض بسبب السحر.

والذي جاء في الروايات الإسلامية أن الشياطين كانت تصعد إلى السماء فتقعد منها مقاعد للسمع فيستمعون من كلام الملائكة فيما يكون في الأرض من موت أو غيث أو أمر ثم يأتون الكهنة فيخبروهم بما سمعوا

فتحدث الكهنة الناس بذلك فيجدونه كما قالوا حتى إذا أمنهم الكهنة كذبوا لهم وأضافوا على ما إستمعوا الكثير من الأكاذيب يلفقوها ويلقونها إلى الكهنة. وقد دوَّن الناس ذلك الحديث في الكتب وفشي في بني إسرائيل أن الجن تعلم الغيب. وكانوا يقولون إن هذا على سليمان وما تم لسليمان ملكه إلا بهذا العلم وإنه إنما وجد ذلك الملك العريض والجاه العظيم بسبب السحر به سحر الجن والإنس والريح التي تجري بأمره.

ولما علم سليمان بذلك بعث في الناس من جمع تلك الكتب فجعلها في صندوق ثم دفنها تحت كرسيه ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من كرسيه إلا إحترق. وقال لا أسمع أحداً يذكر أن الشياطين تعلم الغيب إلا ضربت عنقه. فلما مات سليمان وذهبت العلماء الذين كانوا يعرفون حقيقة هذا النبي العظيم وجاء بعد ذلك جيل آخر من الناس مثل الشيطان في صورة إنسان ثم أتى نفراً من بني إسرائيل فقال هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبداً قالوا نعم قال فاحفروا تحت عرش سليمان وذهب معهم فأراه المكان فقام ناحية فقالوا له فادن قال لا ولكني هنا في أيديكم فإن لم تجدوه فاقتلوني فحفروا فوجدوا تلك الكتب فلما أخرجوها قال الشيطان إن سليمان إنما كان يضبط الإنس والشياطين والطير بهذا السحر ثم فشا في الناس بعد ذلك أن سليمان كان ساحراً.

وإتخذت بنو إسرائيل تلك الكتب. فلما جاء مُحَمَّد -ﷺ- جعل يذكر الأنبياء حي يذكر داوود وسليمان فقالت اليهود أنظروا إلى مُحَمَّد يخلط الحق بالباطل يذكر سليمان مع الأنبياء وإنما كان ساحراً يركب الريح فأنزل الله عذر سلمان «واتبعوا ما تتلوا الشياطين...» الآية.

غير أنه لم يكن من السهل أن تنتزع من العقول ذكرى تلك الآراء التي زورها اليهود على الناس بأن سليمان كان ساحراً عظيماً بل كان عظيم السحرة على الإطلاق والتي ظلت مسيطرة على الأذهان قرون طويلة حتى كان الكثيرون لا يعرفون من أمر سليمان إلا هذه الناحية السحرية وهذه الأفعال والمواهب العجيبة التي أشار إليها القرآن والكتاب المقدس.

وقد أدخلت على سيرة هذا النبي الكريم الكثير من القصص والأساطير مما نراه في قصص ألف ليلة وليلة وغيره من الكتب، بل إن كثيراً من كتاب الفرس والعرب والترك مثل الفردوسي وسعد الدين وإسحق بن إبراهيم وأحمد الكرماني وشمس الدين السيواسي قد بالغوا في ذكر أعاجيب سليمان وذكروا كثيراً من تفاصيل حياته التي أغفلها اليهود بحيث غدا سليمان بن داوود في كتبه عبارة عن شخصية أسطورية دون أن يكون لها ضريب على الإطلاق في كتب الأدب الأخرى حتى ولا في أساطير الهند المغرقة في الخيال. فسليمان في مؤلفات هؤلاء الكتاب وأمثالهم ليس أحكم وأغنى ملوك الأرض فحسب بل إن علمه قد جعله أقوى الرجال وله الأمر على جميع الإنس والجن في الأرض والسماء كما دان لسلطانه كلها في الماء والأرض والهواء من مخلوقات بل إن النباتات ذاتها قد باحت له بأسرارها وخواصها.

ويذهب الباحثون في تاريخ السحر أن هذه الكتب والرسائل السحرية التي تنسب إلى سليمان كانت الصلة بين فنون السحر في المشرق والبلاد الغربية.

وقد أفاض بعض كتاب العرب في ذكر تفاصيل الأعاجيب التي كان يقوم بها سليمان فعند أغلب هؤلاء الكتاب أن سليمان لم يكن يركب الريح على بساطه منفرداً إنما كان يركب معه رجال حاشيته جميعاً وكان هذا البساط من الحرير الأخضر المنسوج بالذهب وفي رواية يهودية أن هذا البساط كان فرسخاً في فرسخ وأن الطير كانت تظلله بأجنحتها من وهج الشمس. وهم يرجعون جميع قوى سليمان وسلطانه على جميع الكائنات وخاصة الجن إلى خاتم سحري في إصبعه كان مرصعة بجواهر الملائكة الموكلة بالعناصر الرئيسية الأربعة كما كان عليه الإسم الأعظم. وفي الخبر أن سليمان سأل الملاك ميخائيل أن يعاونه على التغلب على الجن والشياطين فأعطاه هذا الخاتم السحري وبه إستطاع أن يسحر الجن وأن يحصل منهم على جميع المعلومات المتصلة بهذا العالم غير المنظور أي عالم الجن والشياطين وأن يعرف أسماءهم والرموز التي تشير إلى كل واحد منهم بحيث إذا ذكر هذا الرمز أتاه الجني طائعاً ملبياً لجميع ما يأمره به. وهم يذكرون أكثر من ذلك أن هذه المعلومات قد ضمنها كتابه الذي ينسب إليه وهو المعروف بإسم «مفتاح سليمان».

ومن أخبار سليمان أيضاً في عالم السحر أنه كان يستطيع إجتذاب المردة والشياطين وحبسهم في القماقم ثم ختمها بخاتمه فلا يستطيع الجني الخروج من القمقم ما دام خاتم سليمان عليه كما ورد في قصص ألف ليلة وليلة من خبر الجني الذي حبسه سليمان في القمقم مدة عشرة آلاف سنة. ثم هناك أيضاً درع سليمان وكان يتخذ ذريعة ضد أعمال الشياطين.

وكان الهدهد هو رسول سليمان إلى الملوك في كافة أنحاء الأرض وهو

الذي أتاه بخبر بلقيس ملكة سبأ مما لا داعي لذكره في هذا المقام.

وقد خص الله سليمان –عليه السلام– بالخيل الجياد العراب وقيل إنه ورث من أبيه داوود ألف فرس وكان أبوه أصابها من العمالقة، وتذهب الرواية أن سليمان صلى صلاة الظهر وقعد على كرسيه فعرض عليه منها تسعمائة فإشتغل بحسنها وكثرتها والإعجاب بها حتى غابت الشمس وفاتته صلاة العصر ولم يعلمه أحد بذلك هيبة له فإغتم لذلك وقال ردوها عليّ فردوها فعقرها بالسيف وقربها إلى الله تعالى وبقي منها مائة فرس وما في أيدي الناس من الخيل العراب فهي من نسل تلك المائة.

ومهما يكن من الأمر فإننا لا نستطيع أن نخرج بنتائج إجمالية موثوق بها من هذه القصص وأمثالها. فالعلماء في العصور القديمة الذين إنصرفوا إلى دراسة الظواهر الطبيعية والأعشاب النباتية وخواص الأحجار المختلفة والأجرام السماوية كانوا يوصفون عادةً بأنهم من السحرة بل إننا نجد عالماً مثل ألبرتوس ماجنوسي **Albertis Magnus** أسقف راتسبون في العصور الوسطى وكان له مجدٌ يقارب مجد سليمان من حيث إتصاله بالجن والشياطين قد وصف بالسحر وذلك لأنه كان في واقع الأمر من علماء الطبيعة البارزين.

هذا وتختلف الروايات في ذكر وفاة سليمان فتذهب بعض الروايات أن الله –ﷻ– قد تخلى عنه في أخريات أيامه لخروجه عن جادة الصواب وأن سليمان عندما جاءه الموت سأل الله أن يخفي خبر موته إلى أن تتم الأعمال العظيمة التي كان قد بدأ فيها بمساعدة الشياطين. على أننا سوف

نكتفي بذكر الرواية الإسلامية في هذا الموضوع فهي تذكر أن سليمان قال ذات يوم لأصحابه أن الله تعالى قد آتاني من الملك ما ترون وما مر على يوم في ملكي صاف من الكدر وقد أحببت أن يكون لي يوم واحد يصفو لي إلى الليل ولا أغتم فيه وليكن ذلك اليوم غداً. فلما كان من الغد دخل قصراً له وأمر بإغلاق أبوابه ومنع الناس من الدخول عليه ومنع من رفع الأخبار إليه لئلا يسمع شيئاً يسوءه ثم أخذ العصا بيده ووضعها فوق خصره وإتكأ علمها ينظر إلى ممالكيه إذ نظر شاباً حسن الوجه عليه ثياب بيض قد خرج عليه من جانب القصر فقال له: السلام عليك يا سليمان، فقال: وعليك السلام، كيف دخلت على هذا القصر بغير إذني وقد منعت من دخوله أما منعك البواب والحجاب، أما هبتني حين دخلت قصري بغير إذني؟، فقال: أنا الذي لا يحجبني حاجب ولا يدفعني البواب ولا أخاف الملوك ولا أقبل منهم الرشا وما كنت لأدخل هذا القصر بغير إذن. فقال له سليمان: فمن أذن لك في دخوله؟، فقال له: ربي. فإرتعد سليمان وعلم أنه ملك الموت فقال له: أنت ملك الموت! قال: نعم، قال: فيم جئت؟، قال: لأقبض روحك، قال: يا ملك الموت هذا يوم أردت أن يصفو لي ولا أسمع فيه ما يغمني، فقال: يا سليمان إنك أردت يوماً يصفو لك فيه عيشاً حتى لا يغمك فيه شيء وذلك يوم لم يخلق في الدنيا فإرض بقضاء ربك فإنه لا مرد له، قال: فإقبض كما أمرت فقبض ملك الموت روحه وهو متكيء على عصاه.

وذكروا أن الشياطين كانت تجتمع حوله وحول محرابه ومصلاه أينما كان وكان للمحراب بابان باب بين يديه وياب خلفه فقال بعض الشياطين

لصاحبه إن كنت جليداً فأدخل من الباب الذي بين يديه وأخرج من الباب الذي خلفه، فدخل ذلك البعض ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان في المحراب إلا إحترق. فمر ذلك الشيطان فلم يسمع صوته ثم رجع فلم يسمع فوقف بالبيت فلم تحترق فنظر إلى سليمان وقد سقط ميتاً فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات ففتحوا عليه فأخرجوه فوجدوا منسأته –وهي العصا بلغة الحبشة– قد أكلتها الأرضة فلم يعلموا منذ كم مات فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها يوماً وليلة ثم حسبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة. وإلى هذا يشير القرآن «فلما قضينا عليه الموت ما دل على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خرتبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين». ذلك أن الجن كانوا يعملون بين يديه وينظرون إليه ويحسبون أنه حي ولا ينكرون إحتباسه عن الخروج إلى الناس لطول صلاته قبل ذلك فأيقن الناس أن الجن كانوا يكذبون في إدعائهم علم الغيب فلو أنهم علموا الغيب لعلموا موت سليمان ولم يلبثوا في العناء والعذاب سنة يعملون له.

وكان عمر سليمان عند موته ثلاثاً وخمسين سنة ومدة ملكه منها أربعون سنة.

والآن فلنعد لنذكر شيئاً عن كتب السحر التي تنسب إلى سليمان الحكيم.

كان هناك في القرن الأول للميلاد في عهد الإمبراطور فسباسيان Vespasian كتاب متداول في التعازيم والرقى الخاصة بإستحضار الجن

والشياطين وكان يعرف هذا الكتاب بإسم «سليمان». وذكر المؤرخ فلافيوس جوزيفوس **Flavius Jozephus** وكان معاصراً لذلك العهد، أن هذا الكتاب كان في حوزة يهودي يدعى العازار. وقد إستطاع هذا اليهودي في حضرة الإمبراطور فسباسيان أن يبريء أشخاصاً مستهم الجن وذلك بأن وضع في أنوفهم حلقات عليها رسوم خاصة وضعها سليمان لهذا الغرض ثم تلى في الوقت ذاته بعض الصيغ التى ذكرها سليمان في هذا الكتاب.

وقد أُضيف إلى هذا الكتاب بمضي الزمن الكثير من الصيغ والتعاويذ السحرية ولعل هذا الكتاب هو النواة التي خرج منها كتاب «مفاتيح سليمان» وهو كتاب السحر الذي ذاع صيته في القرون الوسطى وكان يعرف بإسم **Clavicule de Salomon**.

وأخذ الكتاب في مختلف العصور يتحدثون عن كتب السحر التي تنسب إلى سليمان في القرن الحادي عشر تحدث الكاتب اليوناني ميخائيل سللوس **Michael Pseulus** عن رسالة في الجن وخواص الأحجار وذكر أن مؤلفها هو سليمان الحكيم. وتحدث مؤرخ بيزنطي آخر من أهل القرن الثالث عشر في تاريخه عن الإمبراطور مانويل كومنينوس **Manuel Commanentus** عن كتاب في السحر لا شك أنه هو كتاب «مفاتيح سليمان» السالف الذكر. وذكر أن هذا الكتاب كان في حوزة هارون إسحق مترجم الإمبراطور وقال إن الذي يقرأ هذا الكتاب يستطيع أن يستحضر كتائب جمة من الجن والشياطين.

ويظهر أن هذا الكتاب قد إنتقل في القرن الثالث عشر من العالم البيزنطي إلى العالم اللاتيني وتذهب الروايات أن البابا هنوريوس الثالث الذي خلف البابا إينوسنت الثالث على الكرسي البابوي عام ١٢١٦ قد أعد نسخة جديدة من هذا الكتاب وقد إتهم لذلك بالشعوذة والسحر كما إتهم بذلك أيضاً البابوات ليو الثالث وجون الثاني والعشرين وسلفستر الثاني.

وكان الراهب المشهور روجر باكون الذي توفي عام ١٢٩٤ على دراية بكتب السحر التي تنسب إلى سليمان الحكيم ولكنه كان يرى عدم صحة نسبها إلى سليمان لما عرف عن هذا التي من الفضل والحكمة. وفي حوالي عام ١٣٥٠ أمر البابا إينوسنت السادس بحرق كتاب كبير في السحر يسمى «كتاب سليمان» ويذكرون أن هذا الكتاب كان مليئاً بالقواعد والتعازيم الخاصة بإستحضار الجن.

ويستخلص من هذه الإشارات المختلفة التي أوردها المؤرخون المسيحيون في مختلف العصور أن كتاب السحر الذي يُنسب إلى سليمان كان منتشراً في مكتبات أوروبا ولعل هذا الكتاب كان خليطاً من طقوس وشعائر سحرية من أصل يهودي بعضها يُنسب إلى سليمان والبعض الآخر يرجع إلى عهود أخرى غير عهد سليمان ومنها تعازيم وصيغ سحرية لإستحضار الجن قديمة العهد جداً كانت منقوشة باللغة المسمارية على ألواح نينوى.

وما إن قاربت العصور الوسطى على الإنتهاء حتى كانت هناك عدة

نسخ مخطوطة من هذا الكتاب موزعة في جميع أنحاء أوروبا. وقد إهتم علماء عصر النهضة بهذا الكتاب إهتماماً كبيراً وظهرت منه أول نسخة مطبوعة في عام ١٦٢٩ ثم أعيد طبع هذا الكتاب بعد ذلك مراراً.

على أن هذه النسخ المطبوعة لم يكن لها أية قيمة من الناحية العملية التطبيقية لأن التقاليد جرت على أن الساحر الذي يحترم نفسه وفنه يجب أن يكون لديه نسخة مخطوطة من كتاب سليمان وأن مراعاة هذا الشرط خير ضمانٍ لنجاح عملية إستحضار الجن والشياطين.

وقد ذكر كاتب مقدمة هذا الكتاب أن سليمان قد عهد بهذا الكتاب وهو «مفاتيح سليمان» إلى ولده رحبعم وأنه دارت بن سليمان وولده هذا الحوار:

«تذكر يا ولدي رحبعم أنك أعز الأشياء عندي في هذا العالم وأن خالق المخلوقات جميعاً قد جمع في شخصي كل حكمة».

فيجيبه رحبعم: «وما هو سبيلي حتى أكون في ذلك مثل أبي».

فيقول سليمان: «إن ملاك الرب قد أوحى إلى بذلك في المنام فقد ذكرت الأمم المقدس «يَهوة»، (الله) وسألته أن يهبني وسائل الحكمة فأراني إياها ملاك الرب في المنام، وقال لي: أخي سر الأسرار على أحسن ما يكون الإخفاء لأنه سيأتي اليوم الذي ستتلاشى فيه العلوم الكلية وتختفي تماماً وتصبح باطلاً من الأباطيل وإعلم أن يومك بات قريباً. وعند ذلك إستيقظت من النوم كرجل مخمور أرتعد من الخوف وأخذت أفكر فيما عسى أن أصنعه في هذا الأمر».

ثم أوصى الملك سليمان ولده رحبعم أن يدفن معه هذا الكتاب في قبره. وقد تم كل شيء كما أمر سليمان وظل هذا الكتاب مخبوءاً زمناً طويلاً إلى أن عثر عليه في قبر سليمان بعض فلاسفة بابل من صحابة سليمان. وقد وجدوا هذا الكتاب محفوظاً في صندوق عاجي فأخذوه ولكن لم يستطع أحد منهم قراءته أو فهم ما جاء به وذلك لغموض ألفاظ هذا العلم الخفي.

ثم تذكر المقدمة بعد ذلك أن فيلسوفاً من هؤلاء الفلاسفة ويدعى تزجرك **Tozgree** كان جالساً ذات يوم في غرفته يتأمل هذا الكتاب ويفكر فيه إذا بملاك الرب يتجلى له ويقول مخاطباً إياه «أنظر وإقرأ هذا الكتاب الصغير فإن الألفاظ التي تبدو خافية عليك سوف يسهل عليك توضيحها». وعند ذلك إبتهج تزجرك غاية الإبتهاج ونظر في هذا الكتاب فإستطاع أن يقرأ ما فيه بعد أن أعي الجميع قراءته وعند ذلك إبتهل إلى الله أن لا يقع هذا الكتاب في حوزة جاهل ثم قال:

«إني أستحلف كل من يقع في يديه هذا الكتاب بأعضاء بدنه وبكل ما يرغب فيه ويرمي إلى عمله أن لا يترجم هذا الكتاب ولا أن يفسره ولا أن يظهره لأحد اللهم إلا لأعظم الناس علماً وحكمة».

ونجد بعد هذه المقدمة اللطيفة فصولاً خاصة بالأعمال التمهيدية المتصلة بإستحضار الجن والشياطين. وتشير هذه الفصول إلى أن الشياطين تنقسم قسمين: خيرة وهي التي تخدم الإنسان وأخرى شريرة يجب الإبتعاد عنها.

ومن الملاحظ أن الفقه الكاثوليكي لا يأخذ بهذه التفرقة على أساس أن الشياطين جميعاً من الأشرار الملعونين.

ثم بعدد الكتاب بعد ذلك الصفات اللازم توافرها في الشخص الذي يقوم بإستحضار الجن والشياطين وما يجب أن تكون عليه الملابس التي يرتديها والعمل الذي يحتذيه والقلم الذي يكتب به والمداد أو الدم الذي يستخدمه في الكتابة. وهذه الأدوات كلها ضرورية لا غنى عنها لمن أراد أن يدخل إلى هذا العالم الخفي المحجب بالأسرار.

الفصل الرابع

السحر في الإسلام

لا نعرف إلا القليل من أفعال السحر وأخبار السحرة في بلاد العرب قبل ظهور الإسلام في القرن السابع للميلاد. وقد كان المتداول على ألسنة العرب في الجاهلية أن سليمان الحكيم قد خلّف وراءه إرثاً هائلاً من الرقى والتعاويذ والصيغ السحرية المستعملة في شتى الأغراض وأن أتباع سليمان وصحابته تقاسموا هذا الإرث فيما بينهم واحتفظوا بهذه الأسرار السحرية في صدورهم لا يفضون بها إلا لذراريهم وأقرب المقربين إليهم، وأن في بلاد العرب نفراً من الذين وصلتهم هذه الأسرار السحرية يعيشون في الواحات البعيدة عن الطرق المسلوكة وهؤلاء هم سحرة العرب. وكان الناس من وقت لآخر ينشدون هؤلاء السحرة لإستشارتهم فيما يعرض لهم من أمور الدنيا ويطلبون عونهم بفضل ما عندهم من رقى وتعاويذ وصيغ سحرية.

وكان هؤلاء السحرة يعرفون عادةً فيما قبل الإسلام بإسم الكهان وكانوا يدعون المعرفة بالغيب. وكان الرأي بين الناس أن هؤلاء الكهان أذهاناً حادةً وطباعاً ناريةً ولذلك ألفتهم الشياطين لما بينهم من التناسب في هذه الأمور وساعدتهم بكل ما تصل قدرتهم إليه.

وتذهب الروايات الإسلامية إلى أن الكهانة كانت أصنافاً، منها ما يتلقاه الكهنة من الجن إذ كانت الجن تصعد إلى السماء فيركب بعضهم

بعضاً إلى أن يدنو الأعلى بحيث يسمع الكلام فيلقيه إلى الذي يليه إلى أن يتلقاه من يلقيه في إذن الكاهن فيزيد فيه فلما جاء الإسلام ونزل القرآن، حرست السماء من الشياطين وأرسلت عليهم الشهب فبقى من إستراقهم ما يتخطفه الأعلى فيلقيه إلى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: «إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهابٌ ثاقب».

والنوع الثاني ما يخبر به الجني من يواليه بما غاب عن غيره مما لا يطلع عليه الإنسان غالباً أو يطلع عليه من قُرب منه لا من بُعد.

والثالث ما يستند إلى ظن وتخمين وحدس، وهذا قد يجعل الله تعالى فيه لبعض الناس قوة مع كثرة الكذب فيه.

والنوع الرابع ما يستند إلى التجربة فيستدل على الحادث بما وقع قبل ذلك.

وكانت إصابة الكهان قبل الإسلام كثيرةً جداً وظهر بين العرب نفرٌ إشتهروا بالكهانة منهم شق بن أنمار بن نزار وسطيح إبن مازن بن غسان وطريفة الكاهنة وزبراء الكاهنة ولهؤلاء وغيرهم قصصٌ عجيبة طويلة تبين الخوارق والأعاجيب التي قاموا بها.

وكان هناك غير هؤلاء عدد من السحرة المسلحين بالألفاظ والتعابير السحرية والطلسمات والتمائم والتعاويذ يعيشون في الكهوف والمغاور الكبيرة وكانوا يمارسون أعمالهم السحرية على أساس أنهم صفوة ممتازة يتفوقون على الناس أجمعين.

وكانت تقاليد العرب في الجاهلية شبيهة بتقاليد الأمم السامية الأخرى

كاليهود والأشوريين والبابليين وكانت وسائلهم السحرية متفقة وما أثر عن هذه الأمم السامية. وقد إجتمع حول الكعبة في الجاهلية عدد من الأصنام بلغ عددها ١٦٠ صنماً تمثل الآلهة المختلفة وأشهرها اللات والعزى وهيل. وكان العرب يلجأون إليها لإستخارتها في أمور دنياهم. وكان لهذه الأصنام سدنة أو كهنة من قبيلة قريش يتولون إستنطاقها بمختلف الرموز والتعابير والصيغ الغريبة يوجهونها إلى تلك الأصنام.

وجاء الإسلام ونزل القرآن وبه آيات تشير إلى السحر.

وقصة السحر في الإسلام تسير جنباً إلى جنبٍ مع تقدم الحضارة الإسلامية. فقد كان السحر في صدر الإسلام لايزال على الفطرة ليست له قواعد مرسومة مدروسة إنما كان يتناقله الخلف عن السلف دون أن يتصدى أحدٌ لدراسة هذا الفن السحري الذي كان له أثر واضح على الحياة العربية بوجه عام.

ثم كان عهد الخلفاء الأول في الشام ومصر والأندلس وفيه أخذ المترجمون في نقل كتب اليونان والرومان وغيرهم من الدول المغلوبة على أمرها وأخذ العلماء في دراسة تعاليم أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان ولخصوا التواريخ القديمة وسنّوا القوانين ووضعوا قواعد الدين والأخلاق. وإشتغل العلماء في مساجد القيروان والقاهرة وقرطبة وبغداد بدراسة الطب والسحر والكيمياء كما درسوا أيضاً السحر اليهودي والكلداني.

وكان موقف المسلمين تجاه السحر قائماً –كما هو الحال في جميع أمور الدنيا والدين– على ما ورد في القرآن. وقد كتب نفرٌ من علماء

المسلمين أحسن وأشهر الرسائل في السحر والغيبيات بوجهٍ عام وذلك فيما بين القرنين الثاني عشر والسادس عشر. نذكر من هؤلاء الكندي وأبي معشر جعفر بن مُحَّد البلخي وقستا بن لوقا البعلبكي وفخر الدين الرازي وثابت بن قرة وجابر بن حيان وغيرهم.

والسحر في اللغة العربية عبارة عن كل ما لطف مأخذه وخفى سببه ومنه الساحر ويطلق على الذي يقوم بهذه الأعمال. والسحر بالفتح هو الغذاء لخفائه ولطف مجاريه. والسحر هو الرئة وكل ما تعلق بالحلقوم وهذا أيضاً يرجع إلى معنى الخفاء ومنه قول عائشة –رضي الله عنها–: توفي رسول الله –ﷺ– بين سحري ونحري. وقوله تعالى: «إنما أنت من المسحَّرين» يعني من المخلوقين الذين يطعمون ويشربون.

والسحر في عرف الشرع مختصٌ بكل أمر يخفى سببه ويتخيل على غير حقيقته ويجري مجرى التمويه والخداع، ومتى أطلق ولم يقيد أفاد ذم فاعله قال تعالى: «سحروا أعين الناس» حكاية عن موسى وسحرة فرعون أعني أنهم موّهوا على الناس حتى ظنوا أن حبالهم وعصيهم تسعى، وقال تعالى: «يُخيَّل إليه من سحرهم أنها تسعى». وقد يستعمل مقيداً فيما يمدح ويحمد وهو السحر الحلال. قال –ﷺ–: «إن من البيان لسحراً» لأن صاحبه يوضح الشيء المشكل ويكشف عن حقيقته بحسن بيانه ولطف عبارته ويقدر على تحسين القبيح وتقبيح الحسن، يسخط تارةً فيقول أسوأ ما يمكن ويرضى تارةً فيقول أحسن ما يعلم.

روى أنه قدم على رسول الله –ﷺ– الزبرقان إبن بدر وعمرو بن

الأهتم، فقال الرسول لعمرو: خبرني عن الزبرقان، قال: مطاعٌ في ناديه شديد العارضة مانعٌ لما وراء ظهره. فقال الزبرقان: هو والله يعلم أني أفضل منه، فقال عمرو: إنه ذمن المروءة ضيق العطن أحمق الأب لئيم الخال، وإني يا رسول الله صدقت فيهما، أرضاني فقلت أحسن ما علمت وأسخطني فقلت أسوأ ما علمت، فقال رسول الله -ﷺ-: إن من البيان لسحراً.

وإختلف العلماء المسلمون في معنى السحر فقال بعضهم هو خدع ومخاريق ومعانٍ يفعلها الساحر حتى يخيَّل إلى المسحور الشيء أنه بخلاف ما هو به نظير الذي يرى السراب من بعيد فيخيَّل إليه أنه ماء ويرى الشيء من بعيد فيثبته بخلاف ما هو على حقيقته، وكراكب السفينة السائرة سيراً حثيثاً يخيل إليه أن ما عاين من الأشجار والجبال سائر معه، قالوا فكذلك المسحور وتلك صفته يحسب بعد الذي وصل إليه من سحر الساحر أن الذي يراه أو يفعله بخلاف الذي هو به على حقيقته.

وعن عائشة -رضي الله- عنها أن النبي -ﷺ- لما سحر كان يخيَّل إليه أنه يفعل الشيء ولم يفعله. وعن عائشة أيضاً قالت سحر رسول الله -ﷺ- يهودي من يهود بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم حتى كان رسول الله يخيَّل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله.

والذي يقال أن يهود بني زريق عقدوا عقد سحر لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- فجعلوها في بئر ذروان حتى كان رسول الله ينكر بصره ودلّه الله على ما صنعوا فأرسل رسول الله إلى بئر ذروان التي فيها العقد

فإنتزعها، فكان رسول الله يقول سحرتني يهود بني زريق. وفي ذلك نزل قول الله تعالى: «قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب ومن شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد».

والظاهر أن السحر عن طريق عقد العقد وقراءة التعاويذ عليها كان أمراً فاشياً في زمن الرسول.

وأنكر البعض أن يكون الساحر يقدر بسحره على قلب شيء عن حقيقته وتسخير شيء من خلق الله إلا نظير الذي يقدر عليه سائر بني آدم أو إنشاء شيء من الأجسام سوى المخاريق والخدع المتخيلة لأبصار الناظرين بخلاف حقائقها. وقالوا لو كان في وسع السحرة إنشاء الأجسام وقلب لحقائق الأعيان عما هي به من الهيئات لم يكن بين الحق والباطل فضل ولجاز أن تكون جميع المحسوسات مما سحرته السحرة فقلبت أعيانها وفي ذلك وصف الله –جل وعز– سحرة فرعون بقوله:

«فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى».

وقد تساءلوا وكيف يفرق الساحر بين المرء وزوجه، قيل إن معنى السحر تخييل الشيء إلى المرء بخلاف ما هو به في عينه وحقيقته، فتفريق الساحر بين المرء وزوجه تخييله بسحره إلى كل واحد منهما شخص الآخر على خلاف ما هو به حقيقته من حسنٍ وجمال حتى يقبحه عنده فينصرف بوجهه ويعرض عنه حتى يحدث الزوج لإمرأته فراقاً فيكون الساحر مفرقاً بينهما بإحداثه السبب الذي كان منه فرقة ما بينهما.

والسحر بالمعنى الضيق هو الفتنة أو هو الخيال المحض. ويطلق على

ذلك في كثير من الأحيان «التخييل» وإعتماداً على الآية ٦٦ من سورة طه وهي: «قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى». وربما كان هذا هو ما نسميه الآن «بالتنويم المغناطيسي».

وقد تحدث إبن خلدون في مقدمته عن علوم السحر والطلسمات فقال هي علوم بكيفية إستعدادات تقدر النفوس البشرية بها على التأثيرات في عالم العناصر إما بغير معين أو بمعين من الأمور السماوية والأول هو السحر والثاني هو الطلسمات. وكانت هذه العلوم في أهل بابل من السريانيين والكلدانيين وفي أهل مصر من القبط وغيرهم. ثم ظهر في المشرق جابر بن حيان كبير السحرة في هذه الملة فتصفح كتب القوم وإستخرج الصناعة وغاص على زبدتها وإستخرجها ووضع فيها غيرها من التأليف وأكثر الكلام فيها وفي صناعة السيمياء لأنها من توابعها لأن إحالة الأجسام النوعية من صورة إلى أخرى إنما يكون بالقوة النفسية لا بالصناعة العلمية فهو من قبيل السحر. ثم جاء مسلمة بن أحمد المجريطي، إمام أهل الأندلس في التعاليم والسحريات فلخص جميع تلك الكتب وهذبها وجمع طرقها في كتابه الذي سماه «غاية الحكيم» ولم يكتب أحد في هذا العلم غيره.

ويذكر إبن خلدون أن النفوس البشرية وإن كانت واحدة بالنوع فهي مختلفة بالخواص، وهي أصناف كل صنف مختص بخاصية واحدة بالنوع لا توجد في الصنف الآخر وصارت تلك الخواص فطرة وجبلة لصنفها فنفوس الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام– لها خاصية تستعد بها المعرفة الربانية

ومخاطبة الملائكة –عليهم السلام– عن الله –سبحانه وتعالى– وما يتبع ذلك من التأثير في الأكوان وإستجلاب روحانية الكواكب المتصرف فيها والتأثير بقوة نفسانية أو شيطانية. فأما تأثير الأنبياء فمدد إلهي، وخاصية ربانية. ونفوس الكهنة لها خاصية الإطلاع على المغيبات بقوى شيطانية وهكذا كل صنف مختص بخاصية لا توجد في الآخر.

والنفوس الساحرة على مراتب ثلاث فأولها المؤثرة بالهمة فقط من غير آلة ولا معين وهذا هو الذي تسميه الفلاسفة السحر، والثاني بمعين من مزاج الأفلاك أو العناصر أو خواص الأعداد ويسمونه الطلسمات وهو أضعف رتبة من الأول. والثالث تأثير في القوى المتخيلة يعمد صاحب هذا التأثير إلى القوى المتخلية فيتصرف فيها بنوع من التصرف ويلقى فيها أنواعاً من الخيالات والمحاكاة صورة مما يقصده من ذلك ثم ينزلها إلى الحس من الرائين بقوة نفسه المؤثرة فينظر الراؤون كأنها في الخارج وليس هناك شيء من ذلك كما يحكى عن بعضهم أنه يرى البساتين والأنهار والقصور وليس هناك شيءٌ من ذلك، ويسمى هذا عند الفلاسفة الشعوذة أو الشعبذة.

ثم إن هذه الخاصية تكون في الساحر بالقوة شأن القوى البشرية كلها وإنما تخرج إلى الفعل بالرياضة ورياضة السحر كلها إنما تكون بالتوجه إلى الأفلاك والكواكب والعوالم العلوية والشياطين بأنواع التعظيم والعبادة والخضوع والتذليل فهي لذلك وجهة إلى غير الله والوجهة إلى غير الله كفر، ولهذا كان السحر كفراً أو الكفر من مواده وأسبابه ولذلك إختلف الفقهاء في قتل الساحر هل هو لكفره السابق على فعله أو لتصرفه بالإفساد وما

ينشأ عنه من الفساد في الأكوان.

ولما كانت المرتبتان الأوليان من السحر لها حقيقة في الخارج والمرتبة الأخيرة الثالثة لا حقيقة لها إختلف العلماء في السحر هل هو حقيقة أو هو تخيُّل، فالقائلون بأن له حقيقة نظروا إلى المرتبتين الأوليين والقائلون بأن لا حقيقة له نظروا إلى المرتبة الثالثة الأخيرة فليس بينهم إختلاف في نفس الأمر بل إنما جاء من قبل إشتباه هذه المراتب.

ووجود السحر لا مِرية فيه بين العقلاء من أجل التأثير الذي يحدثه. وقد نطق به القرآن في قوله تعالى: «ولكن الشياطين كفروا يُعلِّمون الناسَ السحر وما أُنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلم أن من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بأذن الله».

وكان للسحر في بابل ومصر أزمان بعثة موسى –عليه السلام– أسواق نافقة ولهذا كانت معجزة موسى من جنس ما يدعون ويتنازعون فيه وبقى من آثار ذلك في البرابي بصعيد مصر شواهد دالة على ذلك.

والفرق بين السحر والطلسمات هو أن السحر لا يحتاج الساحر فيه إلى معين وصاحب الطلسمات يستعين بروحانيات الكواكب وأسرار الأعداد وخواص الموجودات وأوضاع الفلك المؤثرة في العناصر كما يقول المنجِّمون. ويقولون السحر إتحاد روح بروح والطلسم إتحاد روح بجسم ومعناه عندهم ربط الطبائع العلوية السماوية بالطبائع السفلية. والطبائع العلوية هي روحانيات الكواكب ولذلك يستعين صاحبه في غالب الأمر

بالنجَّامة. والساحر عندهم غير مكتسب لسحره بل هو مفطور عندهم على تلك الجبلة المختصة بذلك النوع من التأثير.

والفرق عندهم بين المعجزة والسحر أن المعجزة قوة إلهية تبعث في النفس ذلك التأثير فهو مؤيد بروحِ الله على فعله والساحر إنما يفعل ذلك من عنده وبقوته النفسانية وبإمداد الشياطين في بعض الأحوال.

وقد يوجد لبعض المتصوفة وأصحاب الكرامات تأثيرٌ أيضاً في أحوال العالم ليس معدودة من جنس السحر وإنما هو بالإمداد الإلهي لأن طريقتهم ونحلتهم من آثار النبوة وتوابعها ولهم في المدد الإلهي حظ على قدر حالهم وإيمانهم وتمسكهم بكلمة الله. وإذا إقتدر أحدٌ منهم على أفعال الشر فلا يأتيها لأنه مقيَّد فيما يأتيه ويذره للأمر الإلهي فيما لا يقع لهم فيه الإذن لا يأتونه بوجه ومن أتاه منهم فقد عدل عن طريق الحق وربما سلب حاله.

ولما كانت المعجزة بإمداد روح الله والقوى الإلهية فلذلك لا يعارضها شيء من السحر مثل شأن سحرة فرعون مع موسى في معجزة العصا كيف تلقفت ما كانوا يأفكون وذهب سحرهم وإضحمل كأن لم يكن وكذلك لما أنزل على النبي –ﷺ– في المعوذتين ومن شر النفاثات في العقد قالت عائشة –رضي الله عنها– فكان لا يقرؤها على عقدة من العقد الى سحر فيها إلا إنحلت فالسحر لا يثبت مع إسم الله وذكره.

وذكر المؤرخون أن راية كِسرى كان فيها الوفق المئيني العددي منسوجاً بالذهب في أوضاع فلكية رصدت لذلك الوفق ووجدت الراية يوم قُتِلَ رستم بالقادسية واقعة على الأرض بعد إنهزام أهل فارس وشتاهم وهو

فيما تزعم أهل الطلسمات والأوفاق مخصوص بالغالب في الحروب وأن الراية التي يكون فيها أو معها لا تهزم أصلاً إلا أن هذه عارضها المدد الإلهي من إيمان أصحاب رسول الله -ﷺ- وتمسكهم بكلمة الله فإنحل معها كل عقد سحري ولم يثبت وبطل ما كانوا يعملون.

ولم تفرق الشريعة بين السحر والطلسمات وجعلته كله باباً واحداً محظوراً لأن الأفعال إنما أباح لنا الشارع منها ما يهمنا في ديننا الذي فيه صلاح آخرتنا أو في معاشنا الذي فيه صلاح دنيانا وما لا يهمنا في شيء مهما فإن كان فيه ضرر أو نوع ضرر كالسحر الحاصل ضرره بالوقوع ويلحق به الطلسمات لأن أثرهما واحد وكالنجامة التي فيها نوع ضرر بإعتقاد التأثير فتفسد العقيدة الإيمانية برد الأمور إلى غير الله فيكون حينئذ ذلك العقل محظوراً على نسبته في الضرر فلا أقل من أن تركها قربة إلى الله فإن من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه فجعلت الشريعة باب السحر والطلسمات والشعوذة باباً واحداً لما فيها من الضرر وخصته بالحظر والتحريم.

وقد تحدث بعض كُتَّاب المسلمين عن أقسام السحر فقالوا إن السحر على أقسام الأول سحر الكلدانيين والسريانيين الذين كانوا في قديم الدهر وهم قومٌ يعبدون الكواكب ويزعمون أنها هي المدبرة لهذا العالم ومنها تصدر الخيرات والشرور والسعادة والنحوسة ويستحدثون الخوارق بواسطة تمزيج القوى السماوية بالقوى الأرضية وهم الذين بعث الله تعالى إبراهيم -عليه السلام- مبطلاً لمقالتهم ورادًّاً عليهم في مذاهبهم.

والنوع الثاني سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية ويستدلون على ذلك بأدلة. والدليل الأول أن الجذع الذي يستطيع الإنسان أن يمشي عليه لو كان موضوعاً على الأرض لا يمكنه المشي عليه إذا كان الجسر على هاوية تحته وما ذاك إلا لأن تخيل السقوط متى قَوي أوجبه. والثاني قوله أن الأطباء قد إجتمعت على نهي المرعوف عن النظر إلى الأشياء الحمر والمصروع عن النظر إلى الأشياء القوية اللمعان والدوران وما ذاك إلا لأن النفوس خلقت مطيعة للأوهام. والثالث أنه قد حكى عن إبن سينا في كتابه الشفاء عن أرسطو في طبائع الحيوان أن الدجاجة إذا تشبهت كثيراً بالديكة في الصوت وفي الحراب مع الديكة نبت على ساقها مثل الشيء الثابت على ساق الديك. ثم قال صاحب الشفاء وهذا يدل على أن الأحوال الجسمانية تابعة للأحوال النفسانية.

والدليل الرابع هو قولهم أن الأمر قد أجمعت على أن الدعاء مظنة الإجابة وأجمعوا على أن الدعاء اللساني الخالي عن الطلب النفساني قليل العمل عديم الأثر. ويذكرون خامساً أن المبادئ القريبة للأفعال الحيوانية ليست إلا التصورات النفسانية لأن القوة المحركة المغروزة في العضلات صالحة للفعل وتركه أو ضده ولن يترجح أحد الطرفين على الآخر إلا لمرجح وما ذاك إلا تصور كون الفعل جميلاً أو لذيذاً أو تصور كونه قبيحاً أو مؤلماً فتلك التصورات هي المبادئ لصيرورة القوى العضلية، مبادئ للفعل لوجود الأفعال بعد أن كانت كذلك بالقوة. وإذا كانت هذه التصورات أو المبادئ لمبادئ هذه الأفعال. فأي إستبعاد في كونها مبادئ للأفعال نفسها وإلغاء الواسطة عن درجة الإعتبار.

والدليل السادس الذي يسوقونه للتدليل على سحر أصحاب الأوهام هو أن التجربة والعيان شاهدان بأن هذه التصورات مبادئ قريبة لحدوث الكيفيات في الأبدان فإن الغضبان تشتد سخونة مزاجه حتى إنه يفيده سخونة قوية، إذ يُحكى أن بعض الملوك قد عرض له فالج فأعيى الأطباء مزاولة علاجه فدخل عليه بعض الحذاق منهم على حين غفلة منه وشافهه بالشتم والقدح في العرض فإشتد غضب الملك وقفز من مرقده قفزةً إضطراريةً لما قاله من شدة ذلك الكلام فزالت تلك العلة المزمنة والمرضة المهلكة. فإذا جاز كون التصورات مبادئ لحدوث الحوادث في البدن فأى إستبعاد من كونها مبادئ لحدوث الحوادث خارج البدن.

أما الدليل السابع فهو أن الإصابة بالعين أمر قد إتفق عليه العقلاء وذلك أيضاً يحقق إمكان سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية.

وذكروا أن النفوس التي تفعل هذه الأفاعيل قد تكون قوية جداً فتستغني في هذه الأفعال عن الإستعانة بالآلات والأدوات وقد تكون ضعيفة فتحتاج إلى الإستعانة بهذه الآلات. وسبب ذلك أن النفس إذا كانت مستعلية على البدن شديدة الإنجذاب إلى عالم السموات كانت كأنها روح من الأرواح السماوية فكانت قوية على التأثير في مواد هذا العالم أما إذا كانت ضعيفة شديدة التعلق بهذه اللذات البدنية فحينئذٍ لا يكون لها تصرف البتة إلا في هذا البدن، فإن أراد هذا الإنسان صيرورتها بحيث يتعدى تأثير من بدنها إلى بدن آخر إتخذ تمثال ذلك الغير ووصفه عند الحس وإشتغل الحس به فيتبعه الخيال عليه وأقبلت النفوس الناطقة عليه فقويت التأثيرات النفسانية والتصرفات الروحانية ولذلك أجمعت الأمم

على أنه لابد لمزاولة هذه الأعمال من الإنقطاع عن المألوفات والمشتهيات وتقليل الغذاء والإنقطاع عن مخالطة الخلق وكلما كانت هذه الأمور أتم، كان ذلك التأثير أقوى.

ويتبين من هذا أن مزاولة هذه الأعمال لا تتأتى إلا مع التجرد عن الأحوال الجسمانية وترك مخالطة الخلق والإقبال بالكلية على عالم الصفاء والأرواح.

أما الرقى فإن كانت معلومة فالأمر فيها ظاهر لأن الغرض منها أن حس البصر كما شغلناه بالأمور المناسبة لذلك الغرض فكذلك حس السمع نشغله أيضاً بالأمور المناسبة لذلك الغرض. فإن الحواس متى تطابقت على التوجه إلى الغرض الواحد كان توجه النفس إليه حينئذ أقوى وأما إن كانت بألفاظ غير معلومة حصلت للنفس هناك حالة شبيهة بالحيرة والدهشة فإن الإنسان إذا إعتقد أن هذه الكلمات إنما تقرأ للإستعانة بشيء من الأمور الروحانية ولا يدري كيفية تلك الإستعانة حصلت للنفس هناك حالة شبيهة بالحيرة والدهشة ويحصل للنفس في أثناء ذلك إنقطاع عن المحسوسات وإقبال على ذلك الفعل فيقوى التأثير النفساني فيحصل الغرض المراد. وكذلك الحال عندما يستعين الساحر بالبخور والنيران.

والنوع الثالث من السحر هو الإستعانة بالأرواح الأرضية. وقد أنكر بعض المتأخرين من الفلاسفة وكذلك المعتزلة القول بالجن ولكن أكابر الفلاسفة لم ينكروا ذلك وإنما أطلقوا على الجن إسم الأرواح الأرضية وهذه مختلفة في ذاتها منها خيّرة ومنها شريرة، فالخيِّرة هم مؤمنو الجن والشريرة هم

كفار الجن وشياطينهم.

ثم قال هؤلاء الفلاسفة إن هذه الأرواح جواهر قائمة بأنفسها لا متحيزة ولا حالة في المتحيز وهي قادرة عالمة مدركة للجزئيات وإتصال النفوس الناطقة بها أسهل من إتصالها بالأرواح السماوية إلا أن القوة الحاصلة للنفوس الناطقة بسبب إتصالها بهذه الأرواح الأرضية أضعف من القوة الحاصلة لها بسبب إتصالها بتلك الأرواح السماوية. أما أن الإتصال أسهل فلأن المناسبة بين نفوسنا وبين هذه الأرواح الأرضية أسهل ولأن المشابهة والمشاكلة بينهما أتم وأشد من المشاكلة بين نفوسنا وبين الأرواح السماوية. أما أن القوة بسبب الإتصال بالأرواح السماوية أقوى فلأن الأرواح السماوية هي بالنسبة للأرواح الأرضية كالشمس بالنسبة إلى الشعلة والبحر بالنسبة إلى القطرة والسلطان بالنسبة إلى الرعية. وهذه الأشياء وإن لم يقم على وجودها برهان قاطع قاهر فلا أقل من الإحتيال والإمكان. ثم إن أصحاب الصنعة وأرباب التجربة شاهدوا أن الإتصال بهذه الأرواح الأرضية يحصل بأعمال سهلة قليلة من الرقى والدخن (البخور) والتجريد وهذا ما يسمى بالعزائم وعمل تسخير الجن.

والنوع الرابع من السحر هو التخيلات والأخذ بالعيون وهذا النوع مبنيٌ على مقدمات الأولى أن أغلاط البصر كثيرة فإن راكبُ السفينة إذا نظر إلى الشاطئ رأى السفينة واقفةً والشاطيء متحركاً وذلك يدل على أن الساكن يرى متحركاً والمتحرك يرى ساكناً. وقطرة الماء النازلة ترى خطّاً مستقيماً والذبالة التي تدار بسرعة ترى دائرة وهكذا. والجسم الصغير يرى في الضباب كبيراً وكبخار الأرض الذي يربك قرص الشمس عند طلوعها

عظيماً فإذا فارقته وإرتفعت عنه صغرت. وهذه الأشياء قد هدت العقول إلى أن القوة الباصرة قد تبصر الشيء على خلاف ما هو عليه.

والمقدمة الثانية أن القوة الباصرة إنما تقف على المحسوسات وقوفاً تامّاً إذا أدركت المحسوس في زمان به مقدار ما فأمَّا إذا أدركت المحسوس في زمانٍ صغيرٍ جداً ثم أدركت بعده محسوساً آخر وهكذا فإنه يختلط البعض بالبعض ولا يتميز بعض المحسوسات عن البعض. وهم يقولون في إثبات ذاك إن الرحى إذا أخرجت من مركزها إلى محيطها خطوطاً كثيرةً بألوانٍ مختلفة تم إستدارت فإن الحس يرى لوناً واحداً كأنه مركب من كل تلك الألوان.

والمقدمة الثالثة أن النفس إذا كانت مشغولة بشيء فربما حضر عند الحس شيء آخر ولا يشعر الحس به البته فإن الإنسان عند دخوله على السلطان قد يلقاه إنسان آخر ويتكلم معه فلا يعرفه ولا يفهم كلامه لأن قلبه مشغول بشيء آخر وكذا الناظر في المرآة فإنه ربما قصد أن يرى قذاةً في عينه فيراها ولا يرى ما هو أكبرُ منها إن كان بوجهه أثر وجهته أو بسائر أعضائه التي تقابل المرآة.

وإنه يسهل علينا مع إدراك هذه المقدمات أن نتصور كيفية هذا النوع من السحر وذلك لأن الساحر الحاذق يظهر عمل شيء يشغل أذهان الناظرين به ويأخذ عيونهم إليه حتى إذا إستغرقهم الشغل بذلك الشيء والتحديق نحوه عمل شيئاً آخر بسرعة شديدة فيبقى ذلك العمل خفياً لتفاوت الشيئين أحدهما إشتغالهم بالأمر الأول والثاني سرعة الإتيان بهذا

العمل الثاني وحينئذٍ يظهر لهم شيء آخر غير ما إنتظروه فيتعجبون منه جدّاً ولو أنه سكت ولم يتكلم بما يصرف الخواطر إلى ضد ما يريد أن يعمله ولم تتحرك النفوس والأوهام إلى غير ما يريد إخراجه لفطن الناظرون لكل ما يفعله، فهذا هو المراد من قولهم إن المشعبذ يأخذ بالعيون لأنه في الحقيقة بأخذ العيون إلى غير الجهة التي يحتال فيها. وكلما كان أخذه للعيون والخواطر وجذبه لها إلى غير مقصوده أقوى كان أحذق في عمله، وكلما كانت الأحوال التي تفيد حس البصر نوعاً من أنواع الخلل أشد كان هذا العمل أحسن مثل أن يجلس المشعبذ في موضعٍ مضيءٍ جداً فإن الضوء الشديد يفيد البصر كلالاً وإختلالاً وكذا الظلمة الشديدة وكذلك الألوان المشرقة القوية تفيد البصر كلالاً وإختلالاً والألوان المظلمة قلما تقف القوة الباصرة على أحوالها.

والنوع الخامس من السحر، الأعمال العجيبة التي تظهر من تركيب الآلات المركبة على النسب الهندسية تارةً وعلى ضروب الخيلاء أخرى مثل فارسين يقتتلان فيقتل أحدهما الآخر وكفارس على فرس وفي يده بوق كلما مضت ساعة من النهار ضرب البوق من غير أن يمسه أحد، ونحو ذلك من الأعمال الهندسية الدقيقة. على أن هذه الأعمال لا يمكن عدها في الحقيقة من باب السحر ولكن لما كان إدراك سر صنعها عسيراً ولا يتيسر إلا لبعض الناس لذلك عدها أهل الظاهر من باب السحر.

ومن هذا الباب ما صنعه أرجعيانوس الموسيقار في هيكل أورشليم العتيق عند تجديده إياه ذلك أنه إتفق له أن كان مجتازاً بفلاةٍ من الأرض فوجد فيها فرخاً من فراخ البراصل. والبرصلة طائرٌ عطوف وكان يصفر

صفيراً حزيناً بخلاف سائر البراصل وكانت البراصل تجيئه بلطائف الزيتون فتطرحها عنده فيأكل بعضها عند حاجته ويفضل بعضها عن حاجته فوقف هذا الموسيقار هناك وتأمل حال هذا الفرخ وعلم أن في صفيرهِ المخالف لصفير البراصل ضرباً من التوجع والإستعطاف حتى رقت له الطيور. وجاءته بما يأكله فتلطف في عمل آلة تشبه الصفارة إذا إستقبل الريح بها أدت ذلك الصغير ولم يزل يجرب ذلك حتى وثق بها وجاءته البراصل بالزيتون كما كانت تجيء إلى ذلك الفرخ لأنها تظن أن هناك فرخاً من جنسها. فلما صح له ما أراد أظهر النساك وعمد إلى هيكل أورشليم وسأل عن الليلة التي دُفن فيها أسطر خس الناسك القيم بعمارة ذلك الهيكل فأخبر أنه دفن في أول ليلة من آب فإتخذ صورةً من زجاجٍ مجوَّف على هيئة البرصلة ونصبها فوق ذلك الهيكل وجعل فوق تلك الصورة قُبة وأمرهم بفتحها في أول آب وكان يظهر صوت البرصلة بسبب نفوذ الريح في تلك الصورة وكانت البراصل تجيء بالزيتون حتى كانت تلك القبة تمتليء كل يوم من ذلك الزيتون والناس إعتقدوا أنه من كرامات ذلك المدفون.

والنوع السادس من السحر الإستعانة بخواص الأدوية مثل أن يجعل في الطعام بعض الأدوية المبلدة المزيلة للعقل أو أن يستخدم الأدخنة المسكرة أو المغيِّبة للوعي.

أما النوع السابع والأخير من السحر فهو تعليق القلب وهو أن يدَّعي الساحر أنه قد عرف الإسم الأعظم وأن الجن يطيعونه وينقادون له في أكثر الأمور فإذا إتفق أن كان السامع لذلك ضعيف العقل قليل

التمييز إعتقد أنه حق وتعلَّق قلبه بذلك وحصل في نفسه نوعٌ من الرعب والخوف، وإذا حصل الخوف ضعفت القوى الحساسية فحينئذ يتمكن الساحر من أن يفعل ما يشاء. ولتعلق القلب أثرٌ عظيم في تنفيذ الأعمال و إخفاء الأسرار.

وقد إتفق المعتزلة على إنكار هذه الأنواع إلا النوع المنسوب إلى التخيل والمنسوب إلى إطعام بعض الأدوية المبلدة أما الأقسام الخمسة الأولى فقد أنكروها ولعلهم كفَّروا من قال بها.

أما أهل السنة فقد جوَّزوا أن يقدر الساحر على أن يطير في الهواء ويقلب الإنسان حماراً والحمار إنساناً إلا أنهم قالوا إن الله تعالى هو الخالق لهذه الأشياء عندما يقرأ الساحر رقى مخصوصة وكلمات معينة وذلك إستناداً على قوله تعالى: «وما هم بضارين به من أحدٍ إلا بإذن الله».

وقد إتفق المحققون على أن العلم بالسحر غير قبيح ولا محظور لأن العلم لذاته شريف وأيضاً لعموم قوله تعالى: «هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون». ولأن السحر لو لم يكن يعلم لما أمكن الفرق بينه وبين المعجز. على أن إجتنابه أقرب إلى السلامة كتعلم الفلسفة التي لا يؤمن أن تجر إلى الغواية.

أما الساحر هل يكفر أم لا فلا نزاع بين الفقهاء في أن من إعتقد أن الكواكب هي المدبِّرة لهذا العالم وهي الخالقة لما فيه من الحوادث والخيرات والشرور فإنه يكون كافراً على الإطلاق وهذا هو النوع الأول من السحر.

أما النوع الثاني وهو أن يعتقد أنه قد يبلغ روح الإنسان في التصفية

والقوة إلى حيث يقدر على إيجاد الأجسام وإعدامها وتغيير البنية والشكل فالأظهر إجماع الأمة أيضاً على تكفيره وأما أن يعتقد الساحر أنه قد يبلغ في التصفية وقراءة الرقى وتدخين بعض الأدوية إلى حيث يخلق الله تعالى عقيب أفعاله على سبيل العادة الأجسام والحياة والعقل وتغيير البنية والشكل فالمعتزلة إتفقوا على تكفير من يجوز ذلك. أما سائر أنواع السحر فلا شك أنها ليست بكفر.

وحكم من كفر بالسحر حكم المرتد وإذا سحر إنساناً فمات فإن قال إني سحرته وسحري يقتل غالباً وجب عليه القود. وإن قال سحرته وسحري قد يقتل وقد لا يقتل فهو شبه عمدٍ وإن قال سحرت غيره فوافق إسمه فهو خطأٌ تجب الدية مخففة في ماله وهذا هو مذهب الشافعي.

وعن أبي حنيفة أنه قال يُقتَل الساحر إذا على أنه ساحر ولا يستتاب ولا يقبل قوله إني أترك السحر وأتوب منه. فإذا أقرَّ أنه ساحر فقد حُلَّ دمهُ وإن شهد شاهدان على أنه ساحر أو وصفوه بصفة يعلم أنه ساحر قتل ولا يُستتاب وإن أقر بأنه كان يسحر ولكنه ترك السحر منذ زمان قبل منه ولم يقتل.

أما سائر أنواع السحر وكذلك من يتمشى بالتضريب والنميمة ويحتال في إيقاع الفرقة بعد الوصلة ويوم أن ذلك بكتابة يكتبها من الإسم الأعظم فكل ذلك ليس بكفرٍ وكذلك القول في دفن الأشياء القذرة في دور الناس وإيهام أن الجن يفعلون ذلك وكذلك من يَدُّس الأطعمة المبلدة فإن شيئاً من ذلك لا يبلغ حد الكفر ولا يوجب القتل.

هذا هو رأي المسلمين في السحر وأنواعه المختلفة والملاحظ أن علماء الإفرنج الذين كتبوا في السحر لم يصلوا إلى هذه الدقة في ذكر أنواع السحر إنما إكتفوا بذكر الأنواع التي تقوم على الرقى والتعاويذ أو التي تعتمد على براعة الساحر وحيلته.

الفصل الخامس

الرقى والتعاويذ

كان الإعتقاد في العصور الوسطى أن السحرة يجتمعون من وقت لآخر في جهات مختلفة من القارة الأوروبية فأحياناً يجتمعون في أطراف السهول والوديان الفسيحة وأحياناً في داخل الأحراش الموحشة وتارةً أخرى فوق قمم الجبال العالية وخاصة فوق جبال هرتز في شمال ألمانيا. وهم يستحضرون الجن والشياطين لمشاركتهم أعمالهم وألاعيبهم في هذه الإجتماعات الغربية.

وجرت العادة أن يتخذ السحرة أهبتهم لحضور هذه الإجتماعات وهم يستعدون لها إستعداداً ضخماً حتى يضمن كل واحد منهم التفوق على الآخرين فيما يقوم به من خوارق وأعاجيب. وتجد في كتب السحر التي ترجع إلى العصور الوسطى رسوماً كثيرة مثل السحرة وهم يستعيدون لهذه الإجتماعات فإذا ما حان حينها ذهبوا إليها بعضهم يمتطي عصيّ المكانس وأغلب هؤلاء من الساحرات والبعض الآخر يفكر في إتخاذ صورةٍ حيوانية أو شيطانية أو غير ذلك من الصور والأشكال الغريبة.

وكان الإجتماع يتم عادةً في جُنح الظلام ولم تكد له رسوم وشعائر خاصة به بل كان كل ساحر أو ساحرة له مطلق الحرية في التصرف حسبما تمليه عليه نزعاته وأهواؤه. وكان الشيطان نفسه يرأس هذه الإجتماعات

متخذاً صورة غُراب أو قطة سوداء أو كلب أو قرد. وهو يجلس على عرشه يتقبل فروض الولاء والطاعة من السحرة الذين يحضرون هذه الإجتماعات. ويذكرون أن الشيطان كان يقيم وليمةً للحاضرين وكان كل ساحر يجلس إلى المائدة وإلى جانبه شيطان من الشياطين ولم تكن اللحوم التي تقدم للحاضرين سوى الجيف وأجساد الذين شُنقوا وقلوب الأطفال الذين لم يعمدوا وغير ذلك من لحوم الحيوانات القذرة التي لم يتعود الإنسان على أكلها. وبعد الإنتهاء من تناول الطعام يأخذ المجتمعون في الرقص والقيام بكل عملٍ عجيبٍ غريب مما يُحيِّر العقول والألباب.

ولم يكن هَم السحرة وعملهم مقصوراً على الذهاب إلى مجامع السحرة وإستحضار الجن والشياطين وأرواح الموتى بل إن بعض السحرة كان يأبى القيام بمثل هذه الأعمال الخبيثة المحرمة وينصرف إلى أعمال أخرى لا تقل خطورة عن أعمال السحرة في مجامعهم وهي الرقى والتعاويذ. و يمكن أن نقول إن هذه الرقى والتعاويذ كانت المبرر الأساسي لوجود هؤلاء السحرة في نظر الكثيرين من الناس.

ويمكن أن نقسم هذه الرقى والتعاويذ إلى قسمين: ضارة ونافعة وهذه التفرقة تمكننا أن ندرك بوضوح ما يمكن أن نسميه بالحياة المزدوجة للسحرة. فقد ننظر إلى الساحر نظرة مِلؤها الخوف والرهبة بسبب المضار والمصاعب التي يستطيع إلحاقها بالأشخاص والأسر الوادعة المطمئنة بواسطة تعاويذه وأعماله الخبيثة كما ننظر إليه أحياناً أخرى نظرة توَّسُل وإستعطاف ليخلصنا من المصاعب والشرور التي حاقت بنا أو ليكون وسيلتنا إلى الغايات المحببة التي نبغي الوصول إليها.

والساحر اللبق يمكنه في الحالتين أن يستغل ضعف الإنسان وقلة حيلته فيبتز منه الأموال نظير القيام بتعاويذه وأعماله السحرية. ويدعي السحرة أيضاً أنهم يستطيعون القضاء على الطواعين والأمراض التي تحل بجماعة من الجماعات أو بلد من البلاد نظير أجرٍ معلوم. ويعدل الساحر في بعض الأحيان على تخليص الشخص من سحر حل به نتيجة عمل ساحر آخر وفي تلك الحالة ينشب نضال عنيف بين هذين الساحرين ويقع غرم ذلك كله على الشخص التعس الذي حل به سحر الساحرين.

وكان الإعتقاد في العصور الوسطى أن الساحر يستطيع إيقاف السفينة وهي تشق عباب الماء أو أن يحول دون دوران طاحونة الهواء على الرغم من هبوب الرياح. وكانت السحرة تستطيع أيضاً تجفيف اللبن في فروع البقر وإيقاف النبت عن النمو وإحالة الخبز الأبيض إلى خبز أسود وتجميد الخمر في قنانيها وإثارة الفتن والأحقاد بين الأهل والأصدقاء وخلق الطواعين وإثارة العواصف والأنواء.

وكانت السحرة تقوم بهذه الأعمال وأمثالها إذا طلب منها ذلك وهي في الوقت ذاته تستطيع إبراء المريض وإخماد النيران وإيقاف النزيف وغير ذلك من الأعمال التي أكسبت السحرة شهرةً فائقة.

وكانت هذه الرقى والتعاويذ تتكيف في العادة بالبيئة التي تظهر فيها في الدول التي تطل على البحار مثل دول شمال أوروبا وخاصة بلاد إسكندناوة كانت الرقى والتعاويذ تتصل عادةً إما بإثارة الزوابع والعواصف في عرض البحار وإما لتهدئة الأمواج أو لإيقاف السفينة وهي تشق عباب

الماء ونحو ذلك من الأعمال التى تتصل بالبحر وبالسفر في البحار. وتتصل الرقى والتعاويذ في البلاد الزراعية بأعمال أخرى مثل تجفيف اللبن في ضروع البقر أو إيقاف النبت عن النمو ونحو ذلك.

وقد إمتلأت كتب السحر في العصور الوسطى بالوسوم التى تبين أعمال السحرة وبمختلف الرقى والتعاويذ. فنجد في أحد هذه الرسوم إثنين من الملاحين واقفين على سطح سفينهما وأمامهما ساحرٌ واقف على صخرة بارزة من الماء يساومهما على حبل في يده به ثلاث عقد. وقد عقدت الرياح في هذه العقد الثلاث. فالشخص الذي يكون في حوزته هذا الحيل المعقود إذا ما حل العقدة الأولى حصل على رياح جنوبية غربية عليلة، وإذا ما حل الثانية حصل على رياح شمالية شديدة، أما إذا حل العقدة الثالثة فإن عاصفة هوجاء تهب من جميع النواحي.

ونجد في صورة أخرى رسم ساحرتين تعملان على إستنزال المطر وذلك بتعريض ديك فوق مرجل ملتهب.

وكان السحرة يحصلون على مثل هذه النتائج بوسائل أخرى عجيبة مثل رسم بعض الرسوم والأشكال الهندسية أو الكروكية أو حبس ضفدع أو عنكبوت في صندوق أو قراءة بعض الصيغ السحرية. وكان كتاب «مفاتيح سليمان» يحتوي على مجموعة من الرسوم السحرية المختلفة الأشكال والأحجام والرموز وكان من بينها رسم سحري عبارة عن دائرة بداخلها بعض المثلثات المتداخل بعضها في بعض على نحوٍ خاص وحولها الفقرة السابعة من المزمور الثامن عشر ونصها «فإرتجت الأرض وإرتعشت

أسس الجبال إرتعدت وإرتجت لأنه غضب». وكان هذا الرمز السحري خاصاً بإثارة الزلازل.

وقد إشتهر في العصور الوسطى المتقدمة عمل سحري يُعرف بإسم «يد الجلالة» **Hand of Glory** وقد وُصفت بعض كتب السحر هذه التعويذة الضارة بشيء من التفصيل وكيفية تحضيرها وكانت هذه التعويذة تستخدم لإضاعة وعي كل شخص يقع بصره عليها وتجعله عديم القدرة على التحرك بحيث يصبح في عداد الأموات. ويذكرون في تحضيرها الوصفة التالية:

«خُذ اليد اليمنى أو اليد اليسرى لمجرم يتدلى من إحدى المشانق المقامة على الطريق العام. ثم لف هذه اليد في قطعة من غطاء نعش مع الشد عليها جيداً أثناء اللف وضعها بعد ذلك في قدرٍ خزفيٍ به خليط من سلفات النحاس ونترات البوتاسا والملح وعرق الذهب ومادة أخرى لا نعرف كنهها تسمي «زيمات» **Zimat** بعد طحنها معاً طحناً جيداً. وأُترك اليد في هذا القدر مدة أربعة عشر يوماً ثم أخرجها من القدر وعرِّضها لأشعة الشمس طوال أيام الشعرى (بين ٣ يوليو و١٥ أغسطس) إلى أن تجف تماماً. وإذا لم تكن أشعة الشمس من القوة بحيث تكفي لتجفيفها نضعها في فرن وقوده السرخس والفرفحين (نوعان من النبات). ثم إصنع بعد ذلك شمعة من دهن مجرم مشنوق مخلوط بالشمع الخام والسمسم وروث الخيل. ثم إستخدم يد الجلالة كشمعدان تثبت فيه الشمعة عندما تُقاد ومن ثم فإن كل من يتعرض لهذه الوسيلة السحرية المؤذية يفقد وعيه ويصبح عديم الحركة. وقد عمد اللصوص في تلك العصور إلى إستخدام

هذه الوسلية السحرية في السرقة لذلك كان من الممكن إفساد تأثيرها عن طريق مسح عتبة البيت أو المواضيع الأخرى التي قد يَلِج منها اللصوص إلى داخل البيت بدهان مركب من مرارة قطة سوداء ودهن دجاجه بيضاء ودمُ بومةٍ ناعيةٍ، ويجب أن يركب هذا الدهان إبان أيام الشعرى.

وكان هناك أيضاً ما يعرف بإسم «الشمعة المسحورة» وهي تمكن الشخص من الكشف عن الكنوز المدفونة في باطن الأرض. وهي عبارة عن شمعة كبيرة مصنوعة من شحم آدمي مثبتة في قطعة من خشب البندق على هيئة حدوة الفرس. وعندما تضاء هذه الشمعة في مكان ما للبحث عما قد يكون به من كنوز مدفونة. فإنه يتناثر منها شررٌ لامع مع صوت قرقعة عالية كدليل على وجود الكنز في ذلك المكان. وكلما إقتربت من مكان الكنز تزايد شرر الشمعة إلى أن تنطفيء عندما تصبح فوق الكنز.

وإذا ما أرادت ساحرة أن تلحق الضرر بفلاحٍ ما فإنها تجفف اللبن في ضروع أبقاره فلا يصبح أمام هذا الفلاح التعس من حيلة سوى الذهاب إلى الساحرة يلتمس منها رفع هذا البلاء عنه بعد أن يدفع لها الأجر المتفق عليه. وكانوا يذكرون أنه كان في إستطاعة مثل هذا الفلاح أن يرفع عنه هذا الضر إذا أخذ بعض لبن هذه البقرة التي جف ضرعها وغلاه في قدرٍ ثم يأخذ عصاً ويضرب اللبن به وهو في القدر فإن ذلك يحدث في جسم الساحرة ضربات لا تقوى على إحتمالها الأمر الذي يضطرها إلى رفع تعويذتها الساحرة.

وكانت السحرة في بعض الأحيان تحيل لبن الأبقار إلى لبن أزرق اللون

ومن عجائب السحر أن هذا اللبن المسحور يكون دائماً أغزر من اللبن الطيب الأبيض اللون.

وإذا ما شح اللبن في قرية من القرى فإن الساحرة الماهرة كان في إستطاعتها تفجير هذا اللبن من أشياء أخرى لا صلة بينها وبين اللبن. وكانت الطريقة الشائعة لذلك هي أن تأخذ الساحرة بلطة ثم تضرب بها أي عمود خشبي من الأعمدة التي ترتكز عليها شرفات المنازل فيتفجر اللبن من يد البلطة ويصير جمعه في الأوعية والأواني.

وكان بعض السحرة يقومون برقى وتعاويذ لا تفيد أحداً غيرهم فهي من قبيل الأعمال السحرية التي يتفوقون بها على غيرهم من بني البشر نذكر من بينهم الساحر المشهور هوللر **Holler** من أهل بلاد البلطيق فقد كان في مقدور هذا الساحر أن يسير فوق سطح البحر على لوحٍ من الخشب، على أن الأغرب من ذلك كله الرقى والتعاويذ التي تجعل الساحر غير منظور وبذلك يندس في المجتمعات ويدخل البيوت ويطَّلع على الأسرار دون أن يراه أحد.

وجاء في كتب السحر الأسود وصفات كثيرة بها يصبح الشخص غير منظور أشهرها أن يحمل الشخص تحت زراعه الأيمن قلب وطواط ودجاجة سوداء أو ضفدع. وكانت هناك وسيلة أخرى أسهل من هذه وهي أن يلبس الشخص خاتماً مصنوعاً من الزئبق الثابت وعليه حجر صغير يؤخذ من عش طائر الزقزاق ويحفر حول هذا الحجر الكلمات:- «أما عيسى فجاز في وسطهم ومضى» (إنجيل لوقا، الإصحاح ٤، الآية ٣٠). فإذا ما

صنع الشخص هذا الخاتم ووضعه في إصبعه ونظر إلى المرآة ولم يشاهد نفسه فذلك دليلٌ على أنه قد نجح في صنعه. ولقد ذكرنا فيما سبق أن الساحر يعمل في بعض الأحيان على إبطال تأثير التعاويذ والرقى التي يقوم بها ساحرٌ آخر ومن ثم تنشب بين الساحرين حرب لا هوادةَ فيها تكون الغلبة فيها للساحر الذي يتفوق بفنه وعلو كعبه في السحر على غريمه، بل يستطيع الساحر القوي أن يقضي قضاءً تاماً على الساحر الأقل منه علماً وفناً ويقيده هو نفسه بتعاويذه الخاصة فلا يستطيع الفكاك منها. وقد ذكر بعض المؤرخين أنه كانت هناك جزيرة في بلاد القوط الشرقيين بها إبراشيتان وكان بهذه الجزيرة مغارةٌ تمتد مسافاتٍ طويلة في جوف هذه الجزيرة. وكان بهذه المغارة ساحرٌ يدعى «جلبرت» وقد نفاه إلى هذه المغارة منذ الأزمنة القديمة أستاذه «كاتيوم» لأنه تجاسر عليه وسبَّه وإحتقر صناعته فنفاه إلى هذا المكان بفنه السحري. وكان هذا الساحر المنفي لا يستطيع تحريك أي عضو من أعضاء جسمه إذ كان مشدوداً إلى عارضتين من الخشب علمهما كتابات قوطية وأوروبية قديمة.

وتذهب الأسطورة إلى أن هذا الساحر سوف يظل في محبسه هذا إلى أن يتمكن ساحر آخر من تخليصه من ربقة تعويذة أستاذه الذي نفاه إلى هذه المغارة. وكانت هذه المغارة في القرن السادس عشر موضعَ كثيرٍ من الخرافات المفزعة ولم يجسر أحدٌ من أهل ذلك العصر أن يدخل هذه المغارة المخيفة.

ولعل أشهر التعاويذ والرقى التي كانت منتشرة في العصور الوسطى وكان لها شأنٌ هامٌ هي تعاويذ الحب وتعاويذ الموت، وكان لهذين النوعين

من التعاويذ سحرهما الخاص في نفوس أهل العصور الوسطى وذلك لإتصالهما بظاهرتين أساسيتين لا يخلو أن يتعرض لهما الإنسان في كل لحظةٍ من لحظات حياته وهما الحب والموت. وكان الرأي أن الساحر الذي ينجح في تحضير هذين النوعين من التعاويذ يكون قد بلغ الذروة في فنه السحري.

وتعرف تعويذة الحب بإسم «رحيق الحب» وقد وردت هذه العبارة كثيراً في مؤلفات العصور الوسطى وكذلك في الملاحم الشعرية والروايات التمثيلية والأعاجيب، إذ كان هذا الرحيق السحري هو الملجأ الأخير الذي يلجأ إليه المحِب عندما تعييه الحيل ويستعصي عليه محبوبه. ورحيق الحب عبارةٌ عن سائل من الخمر يُضاف إليه خليطٌ من الأعشاب والعقاقير الذي تكسبه خاصية بعث الحب وإثارته في نفسِ الشارب فإذا ما شَرِبَ الرجل أو المرأة هذا الرحيق تعلَّق قلبه بشخصٍ بعينه ووقع في أسرِ الحب.

وقد ذكرت بعض مؤلفات العصور الوسطى طرق تحضير هذا الرحيق ولعل أشهر هذه الطرق هي أن يأخذ المرءُ قلب حمامة وكبد عصفورٍ دورى ورحم سنونو (عصفور الجنة) وكلية أرنب بري ويصنع من هذا كله مسحوقاً ناعماً، ثم يضيف الشخص الذي يقوم بتركيب هذا الرحيق إلى هذا الخليط قدراً من دمهِ مساوياً لما أخذ من هذه الأصناف وذلك بعد تجفيفه وجعله على هيئة مسحوق. فإذا ما تناول الشخص المراد تعليق قلبه بالحب قدراً من هذا الرحيق ما بين درهمين أو ثلاثة فسرعان ما تظهر نتيجة هذا العمل.

ويوجد في متحف ليبسك صورةٌ بديعة من رسم فنان فلمنكي غير معروف يرجع تاريخها إلى منتصف القرن الخامس عشر. ومثل هذه الصورة ساحرةً شابة تحضر رحيق الحب وهي واقفة عارية وسط غرفة مهجورة. ويظهر في هذه الصورة صندوقٌ محمول على كرسي صغير وفي داخل هذا الصندوق قلب آدمي. وفي يد هذه الساحرة قنينة يتساقط منها السائل قطرة قطرة على القلب الموضوع داخل الصندوق. ولم يَطل الإنتظار بهذه الشابة طويلاً لترى نتيجة سحرها الآن في أحلامها ما لبث أن أطل عليها من باب الغرفة وهو على إستعداد لتلبية رغباتٍ آسرةً قلبه. وتبين لنا هذه الصورة كيف كانت الساحرة تقوم هي نفسها بتحضير هذا الرحيق العجيب. وكان الناس الذين يرغبون في الحصول على هذا الرحيق يلجأون عادة إلى السحرة المحترفين ليُحضروا لهم هذا الرحيق. ومن المتناقضات العجيبة في مملكة السحر أنه كان يقوم بتحضير أقوى هذه الأنواع من رحيق الحب الساحرات القبيحات المنظر اللواتي بلغن من العمر أرذله.

ولم تكن تعاويذ الحب دائماً على شكل سائل. والظاهر أن الناس قد تخلوا عن رحيق الحب إلى حد ما في القرنين السابع عشر والثامن عشر وذلك لصعوبة تحضيره ولصعوبة حمل الشخص على شرب هذا الرحيق دون أن يدرك كنهه ولذلك لجئوا إلى وسائل أخرى أكثرَ سهولةً وأفعلَ أثراً من ذلك النظر إلى الشخص المراد إيقاعه في الحب ثم التفوه ببعض الصيغ والعبارات السحرية أو لمس يد هذا الشخص بعد أن تُدهن راحة اليد بعصير نبات الفرفحين. وقد تبدو هذه الوصفة سهلة هينة ولكن من النادر العثور على نبات القرأة حين هذا.

وكانت هناك تعويذة أخرى تؤدي إلى نفس هذا الغرض المنشود دون أن يتطلب الأمر إعداد هذا الرحيق أو لمس الشخص المراد إيقاعه في شراك الحب وهي عبارة عن رسم يتألف من دائرةٍ كبرى وفي داخلها أنصاف دوائرَ وصليب ومربع موضوعة على نظامٍ خاصٍ ومنقوش حول الدائرة الكبرى هذه الفقرة المأخوذة من الكتاب المقدس:

«فقال آدم هذه الآية عظمٌ من عظامي ولحمٌ من لحمي، هذه تدعى إمرأةً لأنها من إمرءٍ أخذت، لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بإمرأته ويكونان جسداً واحداً» (سفر التكوين الإصحاح الثاني، الآيتان ٢٣، ٢٤). وبهذه التعويذة أيضاً أحرف عبرية موضوعة على شكل حلية.

والآن ننتقل إلى النوع الثاني من هذه التعاويذ وهي التي كانت تلقي الرعب والفزع في قلوب الناس ونقصد بها تعاويذ الموت. وكانت أشهر هذه التعاويذ عبارة عن تمثال شمعي يصنع على هيئة الشخص المراد إهلاكه ثم يأخذ الساحر في طعن هذا التمثال الشمعي بمختلف أدوات الطعان فتنتقل هذه اللعنات والوخزات إلى الشخص الحقيقي بوسائل خفية فيموت دون أن تكون هناك علةٌ ظاهرة لموته. وكانت السحرة في بعض الأحيان تستخدم قلب الإنسان بدلَ التمثال الشمعي ويوخزون القلب بالإبر الطويلة فتحدث مثل هذه الوخزات في قلب الشخص المراد إهلاكه. وقلَّما كانوا يستخدمون الحاجه لهذا الغرض ذاته.

وذكرت المصادر المختلفة أنه كان ببلاط فرنسا في القرن السادس عشر منجِّم مشهور يدعى كوزمو روجيري من أهل فرنسا وأن هذا المنجِّم

قد بَرِعَ في عمل تعاويذ الموت وقد إستعان به رجال البلاط الفرنسي في قضاء مآربهم المختلفة بواسطة تماثيله الشمعية المهلكة. ويوجد في المكتبة الأهلية بباريس مخطوط يحوي خطاباً موجهاً من كاترين دي ميديسي إلى النائب العام الفرنسي وفيه تتهم كوزمو روجيري بأنه صنع تمثالاً شمعيّاً بقصد سيء ضد الملك شارل التاسع في عام ١٥٧٤ ونشكر الملكة من ذاك قائلة: «سيدي النائب العام، أمس أخبرني بعض الناس نيابةً عنك أن كوزمو قد صنع تمثالاً شمعيّاً وأخذ يكيل الضربات إلى رأسه وأن القصد من هذا التمثال هو إيذاء الملك. وقد إستعلى كوزمو عما إذا كان الملك قد تقيأ أو لايزال يدمي وما إذا كان يشعر بآلام في الرأس».

وقد تم بالفعل القبض على كوزمو في اليوم التالي.

والغريب أن شارل التاسع قد توفى بعد ذلك الحادث بشهر واحد إذ إنتابه هزال خفيّ. وقد ذكر البعض أن ساحراً بروتستانتسيّاً قد سحره إذ كان يذيب يوماً بعد آخر التماثيل الشرعية التى تمثله وأن حياة الملك كانت تتدهور هي الأخرى يوماً بعد يوم بسبب هذا العمل السحري.

وكان البلاط الإنجليزي أيضاً نهباً لهذا الفزع والخوف من التماثيل الشمعية المهلكة. ففي صباح يوم من أيام عام ١٥٦٠ إستدعى المجلس الخصوص الدكتور جون في منجم البلاط الملكي على عجل فقد عثر على تمثال شمعي الملكة اليصابات وبه دبوس كبير مغروز في الصدر. وقد إنتقل المنجِّم ومعه أحد الوزراء إلى ريشموند حيث كانت الملكة تقضي عطلتها في قصرها الذي يطل على التهم. وهناك أخذ المنجِّم يشرح للحاضرين

ومن بينهم الملكة طبيعة تعاويذ الموت وكيفية إعدادها عاملاً جهده على تسكين روع الملكة التي أخذ منها الخوف كل مأخذٍ لأن المأثور عن الملكة اليصابات أنها كانت تعتقد في السحر والخرافات.

الفصل السادس

عقاب السحرة

كان الناس خلال العصور الوسطى وحتى نهاية القرن السابع عشر يتعقبون السحرة في كل مكان ويعملون على قتلهم وإستئصال شأفتهم بل كانوا إلى ما بعد هذا القرن السابع عشر يتعقبون هؤلاء السحرة في ألمانيا وإسبانيا وإيطاليا. إذ كان الناس ينسبون كل الكوارث التي تحل بالأفراد وبالبلاد إلى عمل هؤلاء السحرة فهم يعدونهم من الكفرة أعداء الإنسانية الذين ينتظرهم أشد العقاب في العالم الآخر.

وتذهب الروايات إلى أن الشياطين أنفسهم كانوا يمسكون بالسحرة الذين إنتهت فترة السماح الممنوحة لهم لمزاولة أعمالهم السحرية ويحملونهم إلى جهنم حيث المكان المعد لتعذيب كل واحدٍ منهم.

على أن الناس في تلك العصور لم يكونوا ليقتنعوا بهذا العقاب الذي ينتظر السحرة في نار جهنم إنما كانوا يحبون أن ينتقه وا بأنفسهم من هؤلاء السحرة جزاء وفاقا لما قاموا به من أعمال قصدوا بها إلحاق الضررِ بالناس دون رحمةٍ أو شفقةٍ لذلك كانوا يقبضون على هؤلاء السحرة ويقدموهم إلى المحاكم التي تقدمهم بدورها إلى آلات التعذيب التي تنتهي غالباً بقتلهم شر قتلة.

وكان الناس من ناحية أخرى يواظبون ويثابرون على تعقب السحرة

وقتلهم إطاعة لما جاء في الكتاب المقدس: «ولا تدع ساحرة تعيش» (سفر الخروج، الإصحاح الثاني والعشرون، الآية ١٨).

ومن المؤكد أن العقوبات التي كانت تفرضها القوانين الأوروبية المتقدمة على السحرة كانت أهوَن بكثيرٍ من العقوبات المنصوص عنها في الشريعة الموسوية. إذ كثيراً ما كانت تفرض الغرامات المالية على من يتهم بالسحر. ونجد أيضاً أن المجامع الدينية مثل مجمع لوديسيا الذي عقد في عام ٢٦٣ للميلاد وكذلك مجمع برخمستد الذي عقد عام ٦٩٧ كانت تقنع في أحكامها بإخراج الساحرة أو الساحر من حظيرة الكنيسة المسيحية أو فرض غرامةٍ مالية عليه. كذلك لم يغالِ القضاة المدنيون في العصور الوسطى في الحكم على هؤلاء السحرة دون سببٍ معقول. في عام ١٣٠٣ إتهم جيشار أحد الأساقفة بأنه وُلِد جان من الجن وأنه كان يستدعيه كلما رغب في ذلك فكان جزاؤه السجن ثم رد إعتباره فيما بعد.

ولم تشتد العقوبات التي كان يحكم بها على السحرة إلا إبتداءً من القرن الخامس عشر إذ كانت من القسوة والشدة حيث تقشعر منها الأبدان وخاصةً في فرنسا وإسبانيا. فقد كان ذلك القول هو عهد إضطهاد وتعذيب السحرة بالمعنى الصحيح. ففي الوقت الذي كانت فيه تقنع السلطات البرتغالية بنفي السحرة إلى خارج البلاد كانت فرنسا وخاصةً في مقاطعة أرتوا تعذب السحرة بمنتهى الشدة والقسوة إذا كانوا يستجوبون ويعذبون وتوضع النيران تحت أقدامهم أو يُجبَرون على إبتلاع الزيت المغلي.

ولقد كانت هذه القسوة في معاملة السحرة موضع تساؤل في البرلمان

الفرنسي في عام ١٤٩١ حتى إن أعضاء هذا البرلمان قد أصدروا قراراً بإلغاء جميع المحاكمات التي كان ينظرها قضاة أراس متهمين هؤلاء القضاة بأنهم يسعون إلى الإستحواز على ممتلكات السحرة، بل إنهم أجبروهم على دفع غراماتٍ ماليةٍ كبيرة لضحاياهم على سبيل التعويض. وليس من شكٍ أنه قد إتهم أناسٌ كثيرون بالسحر والشعوذة زوراً وبهتاناً لأسبابٍ كثيرة غير السحر، حكم على هؤلاء الأبرياء بالسجن والتعذيب دون أن يقترفوا في واقع الأمرِ جرماً يستحقون عليه هذا العذاب.

وقد توقفت هذه المحاكمات فترةً من الزمن حتى لكأن الناس في تلك الفترة كانوا على جانبٍ كبيرٍ من التسامح وسِعَة الأفق. ثم جاء القرنان السادس عشر والسابع عشر وفيهما إستؤنف إضطهاد السحرة وتعذيبهم من جديد.

ونذكر من بين القُضاة الذين عاملوا هؤلاء السحرة بمنتهى القسوة والوحشية هنري بوجيه قاضي قضاة كونتية برجاندي. فقد نشر هذا القاضي في عام ١٦٠٣ كتاباً عن السحرة وما يجب على القاضي أن يتبعه من التعليمات عند محاكمته للسحرة. وهو يذكر في هذا الكتاب بصراحةٍ متناهية أعمال القسوة التي قام بها في محاكمته للسحرة. وقد أخذ البرلمان الفرنسي لمدةٍ طويلة بهذه التعليمات التي ذكرها هذا القاضي. وقد شعرت أسرته بعد وفاته بالخجل لما قام به هذا القاضي من أعمال تتنافى والإنسانية. لذلك أعدمت جميع نسخ هذا الكتاب التى أمكنها الحصول عليها.

ولا يقل عنه شهرة في هذا الميدان القاضي مارتن دل ريو أحد قضاة مجلس الدم الذي أنشأه دوق ألفا لمطاردة السحرة في بلاد القلاندرز.

وهناك آخرون من غير القضاة نشروا عدة كتب خاصة بأنواع العقوبات التي يجب إنزالها بالسحرة والمشعوذين، كما قام بعض رجال الدين من المسيحيين بنشر الرسائل الخاصة بهذا الموضوع ذاته.

وفي إنجلترا قام الملك هنري الثامن والملكة اليصابات بإضطهاد السحرة وتعذيبهم بمنتهى العنف والقسوة. ولا ننسَ في هذا المقام الملك جيمس الأول الذي كتب بخط يده رسالة في إضطهاد السحرة نشرت في هانوفر عام ١٦٠٤.

وهذه الرسالة عبارة عن نقاش في ثلاثة أجزاء بين شخصيتين وهميتين هما فلماتوس وإبستيمون. ويعبر هذا الأخير عن آراء الملك جيمس. ويتناول هذا النقاش بالتفصيل كل ما يتصل بالسحرة والشياطين وعلوم الغيب بتعصب شديد. ويتحدث الملك جيمس في هذه الرسالة على لسان إبستيمون عن السحرة بدون رحمة أو شفقة. في بداية الفصل السادس من الجزء الثالث نقرأ المحاورة التالية:

فلماتوس —والآن لكي نصل حديثنا إلى نهايته لأني أرى أن الليل قد أخذ يرخي سدوله— فإني أسأل عن العقاب الذي يستحق أن ننزله بالسحرة والعرافين الذين يوصمون بهذه الأعمال لأني أشعر أنك تضع هؤلاء جميعاً في درجة واحدة من درجات الإتهام.

إبستيمون – إن السحرة والعرافين يجب أن يذوقوا طعم الموت فإن

هذا هو الإجراء الحكيم تنفيذاً لحكم الله وللقانون المدني والإمبراطوري ولقانون جميع الشعوب المسيحية بصفةٍ خاصة أينما كانت هذه الشعوب.

فلماتوس – ولكن أرجو أن تخبرني عن كيفية إعدامهم كما أوضحت ذلك؟

إبستيمون – الموت بلهيب النيران هو ما يجب أن يحل بهم على أن ذلك لا يهم ما دام سينفذ فيها حكم الإعدام وفقاً لما تنص عليه القوانين ويقضي به العرف والقواعد المرعية في البلد التي يكونون فيها.

فلماتوس – هل ترى أنه يجب أن تكون هناك بعض الإستثناءات أو ندخل في إعتبارنا مسألة الجنس ذكراً أم أنثى كان ذلك الساحر كبير السن أو صغيراً أو بسبب إختلاف مراكزهم الإجتماعية.

إيستيمون – أرى أنه يجب ألا يكون هناك أي إستثناء لأن المفروض أن لا يكون هناك أيّ إعتبار لمثل هذه الأشياء أمام القاضي. فكل من يرتكب هذا الحرم يجب أن يعاقب وفقاً لسنة الله ولا يستثنى أحدٌ من ذلك

.

ولا زاد إضطهاد الناس للسحرة وتفننوا في تعذيبهم والتنكيل بهم في القرن السادس عشر قام طبيبٌ مشهور يدعى چان وير (ولد عام ١٥١٥ وتوفي عام ١٥٨٨) وأصدر كتاباً نشر في عام ١٥٦٩ دلل فيه على أن كثيراً من الذين يتهمون بالسحر ليسوا سحرة إنما هم مرضى بمختلف الأمراض العصبية فلا يستاهلون هذا العقاب الذي يحل بهم. ولعل تناقص عدد السحرة الذين حوكموا وعُذِّبوا في عهده يرجع إلى هذا الكتاب الذي

ترك أثراً عميقاً في نفوس الناس فجعلهم يفكرون ويبحثون طويلاً قبل إتهام شخص بالسحر وإنزال العقاب به، ولعل أشهر محاكمات السحرة التي تمت في فرنسا خلال القرن السابع عشر محاكمة جود فرى أحد القساوسة إذ إتهم بأنه سحر راهبةً من الراهبات تدعى «ماجدلين ماندل» فيحكم عليه بالحرق حيّاً عام ١٦١١ وقد إعترف هذا الراهب أثناء المحاكمة أنه قد حضر إجتماعاً من إجتماعات السحرة التي أشرنا إليها سابقاً وكان ذلك جرماً لا يغتفر.

وتحوي سجلات أقاليم فرنسا كثيراً من تلك المحاكمات التي إنتهت غالباً بالحكم على المتهم بالموت على أشنع صورة، وغالباً ما كان الحرق حياً هو العقاب الذي ينتظر الساحر.

وقد أحرق قسيس إيطالي يدعي «بندتو بندا» وكان في الثمانيين من عمره وقد إعترف هذا القسيس بأنه إحتفظ في بيته بشيطانةٍ تدعى هرملين طوال أربعين سنة وكان يصطحبها معه أينما ذهب دون أن يراها أحدٌ لأنها كانت غير منظورة. ولعل أصغر السحرة الذين حوكموا هي فتاةٌ صغيرة تدعى «كاترين ناجوي» فقد أحرقت وهي في الحادية عشرة من عمرها لإتهامها بالسحر. ونحن نعلم جميعاً أن جان دارك محررة فرنسا قد أحرقت هي الأخرى حية لأنها إتهمت بالسحر. وقد بلغت هذه المحاكمات بضع مئات.

وكان هؤلاء السحرة يعذبون بوحشية تقشعر لها الأبدان. ولدينا عن هذه الأحداث وثائق مكتوبة ورسوم مطبوعة تبين لنا الطباع والأعمال

الوحشية التي كانت تسود عصر لايزال غير بعيد عنا. وقد إشتهرت هولندا بصفة خاصة بمحاكمات السحرة وتعذيبهم بأبشع وسائل التعذيب، في إمستردام كانت المرأة المتهمة بالسحر تشد شداً محكماً إلى سلم خشبي ثم يدفع إثنان من الجلادين الأقوياء هذا السلم إلى النيران التي تكون قد أعدت لهذا الغرض فتُحرق المسكينة حرقاً. وجرت العادة على أن يحضر القاضي تنفيذ الحكم الذي أصدره ويكون التنفيذ غالباً في أحد الميادين حيث يجتمع الناس لمشاهدة هذا المنظر وهم راضون كل الرضا لأنهم على زعمهم قد تخلصوا من ساحرة كانت مصدر شقوتهم وإلحاق الضرر بهم.

وقد خلف لنا كاتب هولندي يدعى إبراهام بالنغ كتاباً نشره في إمستردام عام ١٧٢٥ ويحوي أنواع التعذيب التي كانت تحل بالسحرة والعرَّافين بهولندا. منها التعذيب بالسياط وكان يقوم به عادة صِبية صغار لكي يشتد ساعدهم وتغلظ قلوبهم فيصبحوا في يوم من الأيام جلَّادين لا سحرة. وكان هذا النوع من التعذيب هيناً رفيقاً إذا قيس بالتعذيب بواسطة الكلابات المزودة بالأشواك الحديدية.

وكانت هيئة المحكمة تجلس أمام المتهم وتأخذ في إستجوابه بينما يقوم الجلَّادون بالضغط على أطرافه بهذه الكلابات المؤلمة.

وكانت هناك وسيلة التعذيب بواسطة الطوق الحديدي وهو عبارة عن طوق مبطن بالأشواك الحديدية البارزة يطبق على عنق الساحر فيناله منه أقسى أنواع التعذيب. كما كانوا يعذبون السحرة بوضع أرجلهم فوق لهيب الفحم المتقد.

وكثيراً ما كان المتهم تفيض روحه قبل أن تتم محاكمته لما يلقاه من هذا العذاب فينصرف القضاة إلى شئونهم ويتركون الجثة بين أيدي الجلَّادين لمتابعة إحراقها أو التنكيل بها وكأن المتهم لا يزال على قيد الحياة.

وجرت العادة في كل من إسبانيا وإيطاليا على أن يرتدي السحرة عند تقديمهم إلى المحاكمة زياً خاصاً عبارة عن مئزر عليه رسوم جن وشياطين يحركون نيران الجحيم ليزداد أوارها.

وتذكر المصادر الخاصة بأخبار السحرة والمشعوذين في العصور الوسطى أن الغالبية الكبرى من السحرة كانت تقطن إقليم بامبرج من أعمال ألمانيا لذلك كان يوجد في هذه المدينة بناء خاص تحاكم السحرة فيه ولم يكن في أوروبا كلها بناء آخر أقيم لمثل هذا الغرض. وكان يطلق على هذا البناء إسم «بيت السحرة» وقد شُيِّد هذا البيت في عام ١٦٢٧. وكان في زمانه يعتبر من أعاجيب فن البناء ولاتزال بعض المتاحف الأوروبية تضم الأدوات التي كان يضمها هذا البيت. وكان منقوشاً على واجهة البيت فوق المدخل هذه الفقرة من أشعار فرجيل:

«تعلم الحكمة ما شاء لك أن تتعلم ولكن حذارِ أن تستهين بالآلهة».

ونقشت على لوحتين صغيرتين فوق الجزء الأعلى من هذه الكتابة الترجمة اللاتينية والألمانية للآيات السابعة والثامنة والتاسعة من الإصحاح التاسع من سفر الملوك الأول وهي:

«وهذا البيت يكون عبرة كل من يمر عليه يتعجب ويصفر ويقولون لماذا عمل الرب هكذا لهذه الأرض ولهذا البيت، فيقولون من أجل أنهم

تركوا الرب إلههم الذي أخرج آباءهم من أرض مصر وتمسكوا بآلهة أخرى وسجدوا لها وعبدوها لذلك جلب الرب عليهم كل هذا الشر».

وكان هذا البيت يتألف من طابقين وفي مؤخرته كنيستين صغيرتين الواحدة منهما فوق الأخرى. وكان به غرفة للتعذيب وغرف أخرى صغيرة يحبس فيها السحرة قبل تقديمهم إلى المحاكمة وكان بكل غرفة منها طاقة صغيرة بالقرب من سقف الغرفة. وكان بالقرب من الكنيستين غرف القضاة كما كان بالطابق العلوي غرفة أخرى تعرف بغرفة الإعتراف.

وقد تخلصت بلدية بامبرج من هذا البيت عندما أتيحت لها الفرصة وذلك لتمحوا أثراً من آثار البربرية التي كانت سائدة في أوروبا حتى عهدٍ قريب..

الفصل السابع

السحر عند الشعوب البدائية

كاد السحر أن يتلاشى الآن بين الدول والشعوب المتحضرة وإن كانت هناك بعض الآثار المختلفة التي تدل على الأعمال والطقوس السحرية التي كانت تمارس على نطاقٍ واسعٍ منذ قرون قليلة مضت بين هذه الدول والشعوب.

فالإنسان الحديث وإن كان قد بلغ هذا الشأن الكبير من العلم والحضارة إلا أنه لايزال يحن شوقاً إلى المجهول الخفي ويسعى إلى طلب العون منه كلما حزبه الأمر وضاقت أمامه سبل العيش. على أن بعض الناس تكون العاطفة الدينية قد تأصلت في نفسه وقويت على غيرها من العواطف الأخرى الدفينة فيلجأ في وقت الشدة إلى هذه القوة العليا التي نسميها الله ويعمل على إسترضائها بالصلوات والإبتهالات وغير ذلك من الطقوس والشعائر الدينية عله يجد عن طريقها الفرج بعد الشدة والراحة بعد العناء. وهناك آخرون وإن كانوا في الوقت ذاته يعتقدون في الله ويؤمنون به إلا أنهم مع ذلك ينشدون معونة القرى الخفية الأخرى ويعملون على إسترضائها بمختلف الطقوس والأعمال السحرية، كما أنهم لشوقهم إلى معرفة المجهول نجدهم يستطلعون الغيب بمختلف الوسائل التي لاتزال شائعة بيننا حتى اليوم. وهم لا يعدمون أن يجدوا بين الناس من يدعي

القدرة على الإتصال بهذه القوى الخفية والإستعانة بها على قضاء الحوائج والرغبات أو يدعي معرفة الغيب عن طريق الضرب في الرمل أو قراءة الكف أو النظر في النجوم أو غير ذلك من وسائل الكهانة والتنبؤ بالغيب.

والغريب في الأمر أن هذه النزعة إلى التطلع إلى الغيب والإستعانة بالقوى والأرواح الخفية لا يقتصر ظهورها على الطبقات الدنيا من أهل هذه الدول والشعوب المتحضرة بل هي أيضاً فاشية بين أرفع الطبقات وأعلاها ممن نالت حظاً لا يُستهان به من الثقافة والعلم. وتطالعنا الصحف من وقت لآخر بأخبار وقصص من هذا النوع تدل على تأصل هذه النزعة السحرية في النفوس على الرغم من هذا التقدم الهائل الذي أحرزه الإنسان في ميدان العلوم المادية حتى كادت حضارة هذا العصر الحاضر تتسم بالمادية الصرف والبعد عن جميع الروحانيات التي كان لها الشأن الأول في وقت من الأوقات.

وإذا كان هذا هو الحال الآن بين الدول والشعوب المتحضرة فإن الحال أعجب من ذلك بكثير بين القبائل والجماعات البدائية التي لاتزال تعيش إلى الآن في بقاع مختلفة من أنحاء العالم. وهذه القبائل تعيش حتى اليوم على الفطرة لأنها أو –على الأقل– الكثير منها لم يختلط قط بأي مظهر من مظاهر الحضارة لذلك هم يعيشون على النحو الذي كان يعيش عليه الإنسان منذ عشرات الآلاف من السنين.

وأول ما نلاحظه أنه لا تخلو قبيلة من القبائل الهمجية من طائفة السحرة وهي وحدها الطائفة التي تحتكر جميع المهن والحرف في كل قبيلة

من هذه القبائل. والإعتقاد بين هذه الجماعات البدائية أن للسحر قوي فوق القوى الإنسانية بها يستطيعون السيطرة والتحكم في جميع القوى الطبيعية وأن هؤلاء السحرة على إتصال وثيق بالأرواح المختلفة الطيب منها والخبيث كما أن لهم الغلبة والسلطان على جميع الآلهة، فالساحر في مرتبة أعلى من مرتبة الإله الذي تعتقد فيه القبيلة من هذه القبائل البدائية.

ومما هو معلومٌ من صفحات التاريخ أن الأمم القديمة التي قالت حظّاً كبيراً من التقدم والحضارة كانت تنظر أيضاً إلى الساحر على أنه في مرتبة أعلى من مرتبة الآلهة. في مصر القديمة كان السحرة يدعون أن لهم القدرة على إرغام أعظم الآلهة وأجلُّهم شأناً على تنفيذ أوامره ونواهيهم، وكان الساحر عند قدماء المصريين يهدد الآلهة بالدمار في حالة التمرد والعصيان والخروج عن طاعته.

ولايزال الثالوث الهندي المقدس إلى اليوم –ويتألف من براهما وقشنو وسيفا– يخضع للسحرة ويأتمر بأوامرهم. فهذه الآلهة الهندية تقوم بتلبية رغبات السحرة سواء ما كان منها في عالم السماء أو في العالم الأرضي لأنها لا تقوى على مقاومة تعاويذ ورقى السحرة الهنود. وهناك قول مأثور في الهند وهو: «إن العالم بأسره تخضع للآلهة والآلهة تخضع للرق والتعاويذ وهذه تخضع للبراهمة ومن ثَم فالبراهمة آلهتنا».

ولقد كان النزاع على أشده منذ القدم بين الدين والسحر وهذا يفسر لنا العداء المستحكم الذي كان ملحوظاً بين الكاهن والساحر في الأمم القديمة فالكهنة كانوا لا يرضون عن أعمال السحرة وإدعائهم القدرة على

السيطرة على القوى الطبيعية وإخضاع الآلهة ذاتها إذ كانوا يعدون ذلك إفتئاتاً على حقوق الآلهة وإغتصاباً لإمتيازات وصفات إختص بها الآلهة وحدهم دون غير. ثم كان الكهنة في الوقت ذاته يعدون أنفسهم الواسطة الحقيقية بين البشر والآلهة. وليس من شك أن مكانة الكهنة الإجتماعية ومصالحهم المادية كانت مهددة على أيدي هؤلاء السحرة الذين كانوا يدعون بدورهم أنهم الوسيلة الأكيدة والواسطة المحققة لمن أراد النجاح والتوفيق في الحياة الدنيا والآخرة.

على أن هذا العداء بين الدين والسحر لم يتضح على ما يظهر إلا في عهد متأخرٍ نسبياً من تاريخ الدين. فقد كانت وظيفة الكاهن والساحر في المرحلة الأولى من الدين متحدة أو متشابهة على الأغلب فلم يكن يفترق عمل الواحد منهما عن عمل الآخر. فالإنسان كان إذا أراد أن يصل إلى غرضٍ من أغراض الدنيا والآخرة كان عليه أن يتودد إلى الآلهة والأرواح لإستدرار عطفها ولم يكن ذلك إلا عن طريق الإبتهال وتقديم القرابين إليها وكان له في الوقت ذاته أن يستعين ببعض الطقوس والإحتفالات وتلاوة بعض الصيغ والعبارات التي كان يأمل من ورائها أن تتحقق له آماله دون حاجة إلى معونة الآلهة والأرواح المختلفة، أي أنه كان يقوم في وقتٍ واحد بشعائر دينية وأخرى سحرية دون أن يجد في مسلكه هذا أي شيء من التناقض ما دام همه الوصول إلى ما يريد.

وعلى هذا الأساس نجد أن السحرة في القبائل الهمجية هم في الوقت ذاته كهنة هذه القبائل أي الرجال القائمون على شئون الدين فهم الذين يقربون القرابين للآلهة لطلب عونها في الملمات والكوارث.

ومن الظواهر العجيبة بين هذه الأقوام البدائية أن كل واحد من أفرادها يرى في نفسه القدرة على القيام بالأعمال السحرية لتحقيق رغباته أو إيقاع الأذى بأعدائه. على أننا نجد أن بعض الناس في كل قبيلة من هذه القبائل الهمجية قد إتخذوا تلك الأعمال السحرية مهنة لهم يكسبون بها معاشهم دون حاجة إلى الإشتراك في الأعمال المختلفة العنيفة التي يقوم بها الأفراد الآخرون في سبيل لقمة العيش. ففي كل جماعة من هذه الجماعات البدائية أشخاص يدعون القدرة بأعمالهم السحرية على التحكم في الأجواء وفي الأمواج والأنواء وأنهم يستطيعون إبراء المرضى أو إلحاق الضرر بالغير عن طريق الرقى والتعاويذ.

والقاعدة أن يتخصص كل واحد في ناحية من هذه الأعمال السحرية وإن وجد في الوقت ذاته أشخاص شملت مهارتهم جميع هذه الأعمال والنواحي. ويتناقل الخلف عن السلف هذه المعارف والأعمال السحرية كما هو الشأن في المعارف المتصلة بالشعائر الدينية وطرق تقديم القرابين والقيام بالصلوات والإبتهالات. والأغلب أن يجمع الشخص الواحد بين معرفته لهذه الطقوس والشعائر الدينية وبين القدرة على التحكم في الظواهر الطبيعية من رياح وأمطار وبرق ورعود وغير ذلك من الأعمال.

وهذا الخلط بين السحر والدين قد ظل باقياً بين شعوب بلغت مستوىً عالٍ من الحضارة والمدنية كما كان الحال في مصر القديمة وفي بلاد الهند بل إن هذا الحال لم يتلاشَ تماماً بين أهل الطبقات الدنيا في كثير من دول أوروبا وآسيا في الوقت الحاضر.

والسحر وإن كان قد إختلط بالدين في كثير من العهود وعند كثير من الأمم والشعوب إلا أن هناك من الدلائل ما تدل على أن الإنسان في وقت من الأوقات قد لجأ إلى السحر وحده لإشباع رغباته والحصول على حاجاته التي تسمو على قوى الإنسان العادية الأمر الذي دعا إلى القول بأن السحر أقدم من الدين مثال ذلك أننا نجد أن أهل أستراليا الأصليين وهي أكثر الأقوام ضرباً في الهمجية يمارسون السحر على أوسع نطاق بينما لا يعرفون الدين على أنه وسيلة يسترضون بها القوى العليا غير المنظورة فكل واحد منهم يرى في نفسه القدرة على تغيير مجرى القوى الطبيعية الكبرى عن طريق الأعمال السحرية ولكن لا يفكر أحد منهم في أن يستطعف ويسترضي الآلهة بإقامة الصلوات وتقريب القرابين.

وليس من شك أن الإنسان قد أخذ يتحول من السحر إلى الدين تدريجياً عندما رأى نفسه عاجزٌ عن التأثير في قوى الطبيعة الكبرى والسيطرة عليها سيطرةً تامةً. وكان من دلائل هذا الإنتقال والتجول إعتقاد بعض الشعوب أن الآلهة نفسها لها خبرة ومهارة في أعمال السحر وأنها تحمي نفسها بالتمائم وتحصل على رغباتها بالرقى والتعاويذ. ومن المعلوم أن قدماء المصريين كانوا يعتقدون أن الآلهة هي الأخرى لا غنى لها عن السحر شأنها في ذلك شأن باقي الناس فهي تلبس الأحجية والتمائم وتستخدم الرقى والتعاويذ ليقهر الواحد منها الآخر. والمعروف أن الإلهة إيزيس كانت بارعة في فنون السحر وقد إشتهرت بتعاويذها، وفي بابل إشتهر الإله «إيا» بأنه مخترع السحر وأن ولده مردخ قد ورث عنه فن السحر وكان يطلق عليه إسم ساحر الآلة.

والحال عند القبائل البدائية أنه إذا فشل الساحر في بلوغ ما يصبو إليه من سحره نسب ذلك إلى عمل ساحر آخر أكثر منه مقدرة ومهارة لذلك بدأوا يفكرون في أن بعض الأعمال الكبرى كإستنزال المطر أو إثارة الرياح هي فوق قدرة أى ساحر من بني البشر إنما هي من فعل كائنات أخرى غير منظورة أقوى من جميع البشر وهي الكائنات التي تطورت فيما بعد وأصبحت الآلهة عند هذه القبائل.

والسحر في القبيلة من القبائل الهمجية إما أن يكون موجهاً لصالح فردٍ واحد وإما لصالح أفراد القبيلة على السواء. ففي الحالة الأولى يطلق عليه إسم السحر الخاص وفي الثانية إسم السحر العام.

وأهم الأغراض التي يستخدم فيها السحر العام هو ضمان الحصول على الطعام لأفراد القبيلة، إذ ليس هناك من غريزة أقوى من غريزة حفظ الذات لذلك نجد الأشخاص المشتغلين بتوفير الطعام الأفراد القبيلة –كالصيادين والزارعين– لا يخرجون لأعمالهم إلا بعد طقوس سحرية كثيرة معقدة يقوم بها سحرة القبيلة لضمان عودة هؤلاء الأشخاص مزودين بالكثير من الزاد والطعام.

إن إهتمام هذه الطائفة من السحرة –بل الواجب الملقى على عاتقها– هو معرفة كل شيء يمكن أن يعين الفرد من أفراد القبيلة في نضاله العنيف مع الطبيعة وكل شيء يمكن أن يخفف من آلامه ويطيل من حياته. ولقد إسترعى إنتباه هذه الطائفة خصائص العقاقير والمعادن وأسباب الأمطار والجفاف وأسباب الرعد والبرق وتغير الفصول وتعاقب أوجه

القمر وحركة الشمس اليومية والسنوية وحركات النجوم والكواكب ولغز الحياة وسر الموت وغير ذلك من الظواهر التي إسترعت أنظار الإنسان منذ أقدم العصور.

والواقع أنه لم توجد أية طائفة أخرى من الناس كان لها من الدافع إلى تعقب الحقيقة أينما وجدت أقوى من الدوافع التي دفعت هؤلاء السحرة في الجماعات البدائية، إذ كان من الضروري لهؤلاء السحرة أن يظهروا على الأقل بمظهر العالم الخبير بهذه الأسرار وإلا فقدوا مراكزهم الممتازة بين أهل القبيلة والواقع أن ظهور هذه الطائفة من السحرة المتخصصين قد أفاد الإنسانية فائدة جليلة لأنها تعتبر النواة التي خرج منها الأطباء والجراحون والفلكيون والباحثون والمكتشفون في كل فرع من أفرع العلوم الطبيعية.

ولعل من أهم الواجبات الملقاة على عاتق السحرة في الأقوام والقبائل البدائية لصالح الجماعة هي التحكم في الأحوال الجوية وخاصة ضمان هطول مطر يكفي حاجات القبيلة إذ بدونه تجف النباتات وبهلاك الإنسان والحيوان.

ومن ثم كان صانع الأمطار في الجماعات البدائية شخصية على جانب كبير من الأهمية. وتوجد غالباً في كل جماعة من هذه الجماعات البدائية طائفةً من السحرة عملها ضبط وتنظيم هطول الأمطار وفقاً لحاجات الجماعة. وكانت وسيلهم إلى إستنزال المطر تقوم عادةً على مبدأ المدير التقليدي فإذا ما أرادوا إستنزال المطر قاموا بأقوال تحاكي هطول الأمطار فيصطنعون نشر المياه كما هو الحال عند سقوط المطر. وإذا ما

أرادوا إحداث الجفاف لجئوا إلى إصطناع ما من شأنه تسبيب الجفاف كإيقاد النيران تجفيفاً لرطوبة الهواء. فنجد مثلاً أن السحرة في القبائل الأسترالية البدائية تحمي الحجارة بالنيران ثم تعرضها بعد ذلك للمطر المنهمر أو أنهم يلقون بالرماد الملتهب في الهواء وهم يظنون أنه –بعملهم هذا– سوف يحتبس المطر لأنه لا يحب أن يحترق بهذه الحجارة المحمية وبهذا الرماد الملتهب..

ولا تقتصر هذه الأعمال السحرية على القبائل والأقوام البدائية بل تقوم بها أيضاً جماعات نالت حظاً كبيراً من الثقافة والتمدين. فقد جرت العادة على أنه إذا إحتبس المطر مدة طويلة في بلاد اليونان إجتمع عددٌ من الصبية ويسيرون في هيئة موكب وينتقلون حول العيون والآبار في الجهات المجاورة ويسير على رأس هذا المركب فتاةٌ مزينةٌ بالزهور والرياحين فإذا ما وقف الموكب عند بئر أو عين ماء أخذ منها الصبية بعض الماء ونثروه على الفتاة التي تسير على رأس الموكب وهي بذلك يعتقدون أن المطر لا يلبث أن ينهمر.

ونجد أنه عندما يعوز أهل قرية دربات من قرى الروسيا سقوط المطر يخرج ثلاثةً من رجال هذه القرية ويتسلقون أشجار الشربين ثم يأخذ أجدهم في الضرب بالمطرقة على طبلة صغيرة أو برميل مقلداً بذلك صوت الرعد، بينما يقدح الآخر جذوتين حتى يتطاير الشرر منها مقلداً بذلك وميض البرق. أما الثالث وهو الذي يطلق عليه إسم صانع المطر فيمسك بيده حزمةً من الأغصان الصغيرة يغمسها في إناء به ماء ثم ينشر ما علق بها من ماء في جميع الجهات.

والساحر في الشعوب والقبائل البدائية يعتقد أنه يستطيع بسحره أن يتحكم في الشمس ذاتها وأن يتحكم في الرياح فيثيرها إذا أراد ويوقفها عن الحبوب عندما يحب وهو غالبا يقوم بهذه الأعمال السحرية الكبيرة لصالح الجماعة كلها عندما تطلب منه ذلك.

وإذا كان الساحر في الشعوب البدائية يعتقد أنه يستطيع التحكم في هذه القوى الطبيعية الكبرى من رياح وأمطار وبروق ورعود فهو بطبيعة الحال له القدرة على التحكم في الأفراد، بمعنى أنه يستطيع إلحاق الضررِ بالغير كما أنه يقدر على تخليص الفرد مما قد يحل به من آلام وشرور نتيجةً لفعل الأرواح الخبيثة كما هو الإعتقاد عند هذه الجماعات البدائية. فهو يلجأ إلى الدمى والتصاوير التي تمثل الشخص الذي يريد إلحاق الأذى به ويعمل فيها سحره الضار فينتقل هذا السحر إلى الشخص ذاته الأمر الذي لايزال يفعله مُدَّعو السحر حتى اليوم في كثير من الأمم والشعوب المتحضرة وهذا هو السحر الأسود الذي كان منتشراً كل الإنتشار إبان العصور الوسطى على ما ذكرنا في موضع آخر من هذا الكتاب.

ولعل الطب هو من العلوم التي ترتبط برباط وثيق بفن السحر منذ أقدم العصور. فالإنسان يعتقد على الدوام في الطب وإن كان إنسان ما قبل التاريخ والإنسان البدائي يطلق على الطب إسم السحر. فمن الأمور التي لفتت نظر الإنسان وإهتمامه على الدوام ما يجري داخل جسمه وكيف يتحرك هذا الجسم ويقوم بوظائفه المختلفة. والإنسان في جميع مراحل تاريخه كان في حاجةٍ مُلِّحة إلى نوعٍ من الطب لأن الإنسان لم يخل من العلل والأمراض في أي عصر من العصور. والمعروف أن العصر

الجيولوجي الذي يطلق عليه العلماء إسم العصر الفحمي وهو الذي يرجع تاريخه على ما يقول بعض علماء الجيولوجيا إلى أكثر من ١٨٠ مليون سنة كانت تعيش فيه أنواع مختلفة من الميكروبات والبكتيريا.

ويذكر العلماء أن حفريات أقدم أنواع القردة الشبيهة بالإنسان وهي التي يطلقون عليها إسم إنسان جاوه بها آثار خراج في الفخذ، بل إن بقايا حيوانات ما قبل التاريخ تدل على أن هذه الحيوانات كانت تصاب بأمراض النقرس وإلتهاب العظام وتسوس الأسنان وغير ذلك من الأمراض.

وعندما ظهر الإنسان الحديث منذ ما يقرب من أربعة عشر ألف سنة بدأت تظهر الوسائل البدائية في العلاج. ومن المعلوم جيداً أن إنسان العصر الحجري وهو الذي كان موجوداً منذ ستة آلاف سنة مضت قام بصنع آلات حادة من حجر الصوان كالسكاكين والمحكات وقد إستخدم هذه الآلات الحجرية في القيام بعمليات التربنة أي فتح جماجم الرجال والنساء الذين كانوا يقاسون من الأمراض بسبب أعمال الأرواح الشريرة.

وهذا هو التفسير الوحيد المعقول الذي يمكن أن نفسر به وجود عدد من الجماجم البشرية وبها ثقوبٌ مستديرة منتظمة مما يدل على أن هذه الثقوب قد تم عملها إبان حياة الشخص ثم إندملت أو جزء منها على الأقل بمرور الزمن. وكان الغرض من عمل هذه الثقوب في جمجمة المريض إتاحة الفرصة للأرواح الخبيثة التي حلت بالمريض لأن تخرج من هذه الثقوب لكي يبرأ المريض من علته.

وليس من شك أن هذا العلاج في حد ذاته كان أخطر في الواقع من المرض الذي كان يشكو منه المريض. على أن وجود مثل هذه الجماجم وبها الثقوب التي إندملت لدليل على أن بعض هؤلاء المرضى قد ظل حياً بعد إنتهاء هذه العملية الجراحية الخطيرة. وكانت هذه العملية كثيرة الحدوث إبان العصر الحجري.

ولدينا من الشواهد ما يدل على أن الأمراض كانت منتشرة بين الإنسان في عصور ما قبل التاريخ وفي عهد الإنسان الأول. فقد تم العثور في إحدى المقابر القديمة بالقرب من هيدلبرج من أعمال ألمانيا على هيكل إنساني به إصابات بالسل بالعمود الفقري كما كانت أمراض النقرس وتسوس الأسنان وغير ذلك من أمراض العظام منتشرة في تلك العهود القديمة من تاريخ الإنسان.

وليس من شأن الإنسان الأول كان على مستوى عالٍ من الذكاء فالآثار التي خلَّفها هذا الإنسان مثل الأدوات الجميلة التي قدها من حجر الصوان والرسوم البديعة التي خلَّفها على جدران الكهوف والمغاور وكذلك مصنوعاته التي صنعها من الخشب والعظام والعاج كلها تدل على أنه كان على قدرٍ كبيرٍ من المهارة الفنية، وليس من المعقول أن نفترض أنه لم يطيق ذكاءه هذا بشكل ما على معالجة الأمراض وحوادث الحياة.

وليس لدينا بطبيعة الحال إلا شواهد قليلة جداً من الحفريات التي عثرنا عليها مما تتصل مباشرةً بهذه الناحية، ولكن لدينا ما يماثلها عند الإنسان البدائي الذي لايزال موجوداً في وقتنا الحديث فإذا ما طبقنا هذه

الأمثلة التي نجدها عند الأقوام والشعوب البدائية بحذرٍ وتدقيقٍ فإنه يمكن أن تكون صورة ما عن الطب كما كان يمارسه الإنسان الأول و إنسان ما قبل التاريخ.

ويمكن أن نلخص أسلوبه أو طريقته الطبية في معالجة الأمراض في كلمة واحدة وهي السحر. ويمكن أن تدرس هذه الطريقة بدراسة ما يماثلها عند بعض الأقوام والقبائل البدائية الحالية كأهل أستراليا الأصليين وأهالي بعض أنحاء غينيا الجديدة وقبائل البوشمان في جنوب إفريقية.

نجد أن الطب عند هذه الأقوام البدائية يتصل إتصالاً وثيقاً بالسحر فالرجل الذي يقوم على علاج الأمراض عند هذه الأقوام يعرف بإسم «الطبيب الساحر». وهو شخصية تهابها أفراد القبيلة جميعاً ومع ذلك فهي تثق فيه وبقدرته العلاجية. فالأهالي في تلك القبائل والجماعات البدائية تنسب عادةً المرض إلى سحرٍ خبيث عدائي قام به عدوٌ وأن مهمة الطبيب الساحر هو إفساد هذا السحر لإبراء المريض. وعمل الطبيب الساحر هو في الواقع نوع من الإبراء بالإيحاء وكثيراً ما ينجح هذا النوع من التطبيب كما هو حادثٌ بين أهل الدول المتمدينة.

ولنذكر مثالاً يفسر لنا ما نقوله:

يظن أهل أستراليا الأصليون أن جميع الأمراض بل وأحداث الحياة ذاتها التي لا يرجع أصلها إلى الخروج عن قواعد السلوك المرعية بين أفراد القبيلة وهي التي يطلق عليها إسم «التابو» هي من عمل السحر العدائي فالعدو أو الساحر يضع دميةً تمثل الشخص المراد إلحاق الضرر به ثم يعمل

عليها سحره الخاص فيدب الألم والمرض في جسد الشخص الذي تمثله الدمية. وهو إذا أحس بالمرض والألم يتمشى في أوصاله إستدعى الطبيب الساحر فيأتي ومعه بللوراته السحرية الشافية، ثم يركز أنظاره على المريض مُعرضاً بللوراته الشافية لأنظار المريض ثم يدلكه ويمتص منه المرض الذي حل بجسده وهكذا يبرأ المريض من مرضه.

أما إذا إعتقد المريض أنه يعاني من سحر عدائي قتال. لا ينفع معه التطبيب أو يرفض الطبيب ذاته معالجة المريض خشية أن يفشل في ذلك فلا يكون أمام المريض والحالة هذه إلا أن يستسلم للموت.

وهذا هو نوعٌ واحدٌ من أنواع الطب البدائي كما يمارسه السحرة في هذه الأقوام البدائية ولابد أنه كان يُمارس على وجهٍ ما منذ مئات الآلاف من السنين.

الفهرس